ليوباردي

شاعر إيطاليا ومفكّرها الكبير

أفكار



ترجمة: أمارجي

نبذة عن المؤلف:



ولد جياكومو ليوباردي، شاعر إيطاليا ومفكّرها الكبير، في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سنة ١٧٩٨. درس اللاتينية واللاهوت والفلسفة، وكتب أوّل أعماله وهو في الخامسة عشرة من عمره. أصيب مبكراً بمرض خطير ظلّ يعاني تداعياته طيلة حياته. كان مناهضاً كبيراً للحركة الرومانسية، وكتب ضدّها «ما تحدّث به إيطاليّ حول القصيدة الرومانتيكيّة». عاش حياة هي أقرب إلى العزلة؛ ومن روائعه القصائد الخمس: «الفكر المسيطر»، «حب وموت»، «إلى ذاته»، «كونسالفو» و«أسباسيا»، التي كُتبت بين عامي ١٨٣١ و١٨٣٥. آخر مؤلفاته: «غروب القمر ونبتة الوزّال». توفي في نابولي سنة ١٨٣٧.



أفكار



ليوباردي
شاعر إيطاليا ومفكرها الكبير

أفكار

ترجمة:
أمارجي



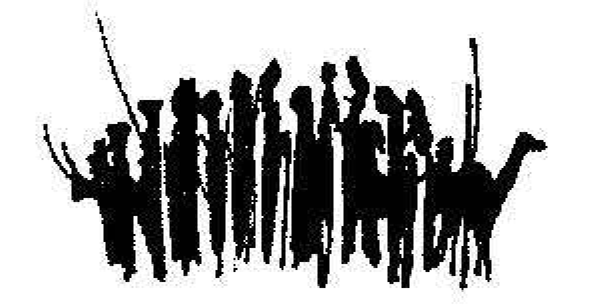


© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

PQ4708.P6.A7 2009
Leopardi, Giacomo, 1798-1837
أفكار/ تأليف جياكومو ليوباردي؛ ترجمة أمارجي. ـ ط.1. ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
160 ص؛ مص؛ 14 x 21 سم.
ترجمة كتاب: Pensieri
تدمك: 978-9948-01-304-4
1 ـ المقالات الايطالية.
2 ـ Leopardi, Giacomo, 1798 - 1837

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:
Pensieri





الطبعة العربية الأولى 1430 هـ 2009 م

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 6314468 2 971+، فاكس: 6314462 2 971+
info@kalima.ae
www.kalima.ae

المحتويات



الإهــداء

إلى ماريِلِنا سالفارِتزا

عند أفق الزمن المعاصر

يجب ألا يجعلنا الهدوء المضلِّلُ لـ«رِكاناتي»، تلك البلدة الموحشة التي أنجبت ليوباردي إلى هذا العالم، ننسى أنَّه عندما وُلدَ هذا الشاعر والمفكِّر، في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1798م، كانت أوروبا تعيش ارتدادات الثورة الفرنسية على المستوى السِّياسي، أما على المستوى الاقتصادي فكانت تجني ثمار التطوُّرات النَّاجمة عن الثورة الصِّناعيَّة.. أمَّا الفترة التي بدأت مع مستهلِّ عام 1800م لتصل أوجها حوالي عام 1870م، فقد شهدت تراجع الأرستقراطيَّة بإزاء نشوء البروليتاريا وترسخ الطَّبقة الوسطى في المجتمع.

وقد كانت حروب نابليون، التي تعد ثمرة هزيمته في واترلو، المسؤولة عن إدخال المفاهيم الأساسيَّة للثورة مثل: الحريَّة والمساواة والأخوَّة إلى أوروبا. وفي

مواجهة ذلك، حاولت الهيئة التشريعية في فيينَّا (1814-1815) إعادة تثبيت النِّظام القديم، ولكنَّها لم تستطعْ سوى فعل القليل؛ حيث كان صراع المفكِّرين ومثقَّفي الطَّبقة الوسطى كبيراً في سبيل التَّحرُّر والحصول على تشريعات دستورية، هكذا جُدلَتْ الأفكار الوطنيَّة مع أفكار التَّحرُّر في جديلة واحدة، وما كانت في البداية أحلاماً عبَّرتْ عنها أقلِّيَّاتٌ مسحوقة، استحالتْ فيما بعد نهراً عظيماً هزَّ أركان أوروبا في سنةٍ تاريخيَّةٍ عظيمةٍ، سنة 1848م.

بين المفكِّرين والفنَّانين آنذاك، كثرٌ هم الذين خاضوا في السِّياسة ونطقوا بأفكار الثَّورة، فيما على الجهة الأخرى من ذلك، وتحديداً في النِّصف الثَّاني من القرن، لم يكونوا بقلَّة، هُم أيضاً، أولئكَ الذين طُوِّقوا بالعزلة بما جنوه على أنفسهم جرَّاءَ مناهضة التحرُّر عبر الشِّعر والفنِّ.

لقد شهدَ النِّصف الأوَّل من القرن التَّاسع عشر، في أوروبا، انتصارَ الرُّومانسيَّة، تلك الظَّاهرة الرَّحبة والمعقَّدة التي مسَّت جميع أشكال الفنِّ مثلما مسَّت الأفكار والسُّلوك، وقد امتدَّت لبضعة عقودٍ من الزَّمن،

واختلفت طرقها في الإفصاح عن نفسها بين بلدٍ وآخَر. لكن، بين تلك النزعات المختلفة، وحتَّى المتناقضة، للرومانسيِّين، كانت ثمَّة أسسٌ مشتركة: الشِّعر صوت العاطفة، الخيال والوهم أساس الفنِّ، الانطلاق نحو حريَّة الإبداع، إعلاء شأن الأسطورة والرَّمز، الكلمة كقيمة تعبيرية. والمرجع الأوحد للجميع في هذا هو تلك الأفكار الموضوعة من قِبَل جماعة يينا [Gruppo di Jena] التي أسَّسها الأخوة شليغلSclegel، تييك Tieck، نوفاليس Novalis، وشِلِّينغ Schelling.. وقد أسهمت مدام دي ستيل Mme de Staël إسهاماً خاصَّاً في انتشار تلك الأفكار، حيث كانت تجمع في القصر المطلِّ على بحيرة لِمانو رجالات الثَّقافة الأكثر أهميَّةً في ذلك الوقت.

أمَّا في إيطاليا، فقد برزت خلال الخمس عشرة سنة الأولى من القرن الثامن عشر النزعة التقليدية الحديثة "النيوكلاسيكية"، والتي يمكن ملاحظة آثارها في أعمال مونتي وفوسكُلو Monti e Foscolo، وفي أفكار مانتسوني Manzoni وليوباردي Leopardi.. بطبيعة

الحـال، يركِّـز الرومانـسيون الإيطالـيُّون علـى واجـبات الكاتـب، وهـم يعطون اعتباراً كاملاً غير منقوص لعلاقة الأدب بالـسِّياق التَّاريخـي- الاجتماعي، فالأدب بالنسبة لهم يمثِّل دوراً أساسيَّاً في عمليَّة التَّوحيد السِّياسي والبناء الاجتماعـي، خـصوصاً لمـثل هكذا موزاييك مبنيٍّ على الاختلاف الذي هو، أصلاً، السِّمة المميِّزة لإيطاليا.

حياتـه

وُلِـدَ جـياكومو ليوباردي في التَّاسع والعشرين من حزيـران/ يونـيو سـنة 1798 مـن أبـويه الكونت مونالدو وأدِلايـدِه أنتيتشي، في بلدة رِكاناتي التَّابعة للمنطقة التي باتـت تُعـرَف الـيوم بمقاطعـة بونتيفيتـشو، ليكون الابن الأوَّل (يتبعه كارلو المولود سنة 1799، وباولينا المولودة سـنة 1800) لعائلـة تنتمـي إلى طبقة النُّبلاء، تلك الطبقة الـرَّازحة تحـت أثقال ضوائقها الماديَّة وذهنيَّتها الرَّجعيَّة. كـان الأب الـذي دائمـاً مـا كانت علاقة جياكومو به في غايـة الـصُّعوبة، كـان مناهـضاً لنابلـيون، وكاثوليكـيَّاً محافظـاً، ولم يكـن لمـسائل التَّطوُّر الاقتصادي أن تثنيَه عـن التـشبُّث بوسـائله التقلـيديَّة في هذا المجال. كذلك

كـان الأمـر مع الأمِّ، فعلاقتها بالابن كانت تتَّسم بالبرود والإقـصاء، ما قد يبدو معتاداً بالنسبة إلى هذه الطَّبقة في ذلـك الـوقت، إلاَّ أنَّـه بطبـيعة الحـال وحـين لا يلبِّـي حاجـات فـتىً مـثل جياكومو، رقيق المشاعر وذو وعيٍ أكثر نضجاً من سنِّه. درسَ جياكومو على أساتذةٍ خاصِّين للغـة اللاتينيَّة واللاهوت والفلسفة، ليستعين بذلك على إتمـام دراسـته الـرَّسميَّة، الأمـر الـذي سرعان ما تحقَّق بفـضل رغبـته الجَّامحـة في المعـرفة والحـريَّة اللامحـدودتَين، بالـرَّغم مما كان قد ألمَّ به من معوِّقاتٍ جـسديَّة.. في عـام 1813، عكف وحده على تعلُّم اللغة اليونانـيَّة، والعـبريَّة مـن بعـدها، وقـد كـتبَ وهـو في الخامـسة عـشرة من عمره «*تاريخ علم الفلك من بداياته إلى عام 1811*»(1).

بـين عامـي 1815 و1816، انـصبَّ اهـتمامه علـى الدِّراسـات الفيلولوجيَّة، وقام بترجمة نصوصٍ إغريقيَّة، وكـتبَ «*العـارفُ متـرِّفعاً علـى الأخطـاء الـشائعة*

---

(1) La Storia dell'Astronomia dalle sue Origini all'Anno 1811.

للأوَّلـين»[1]، لـينزل به بعدئذ مرضٌ خطيرٌ، لم يلبث أن تـركَ له جسداً ضعيفاً ومشوَّهاً، لكنَّه لم يمنعه أثناء ذلك من كتابة مغنَّاته الشَّهيرة بعنوان «*دنوُّ الموت*»[2].

قـرأ المؤلِّفيـن القدماء أمثال دانتي Dante وبِترارِكا Petrarca، إضـافةً إلى بعـض معاصـريه الأكثر إلهاماً في رأيـه مثل ألفييري Alfieri وفوسكُلو Foscolo.. وقد نأى جياكومو، في مقتبل العمر، بنفسِهِ عن آراء أبوَيه ورفضَ كـلَّ صـيغ الـتَّديُّن، الأمـر الذي سوف يظل مطبوعاً في سجلِّ حياته الثَّقافيَّة مثل لعنةٍ لا تزول.

في صـيف عام 1817، بدأ بكتابة خواطره الخاصَّة تحـت عـنوان «*الـشذرات*»[3]، ضـمَّ تأمُّلاته وملاحظاته والأفكـار الأولى لقـصائده الأوبـرالية، واسـتمرَّ بالعمل علـيه حتَّـى عـام 1832. وبالـتَّوازي مـع كتابـته لـتلك الإلماعـات الفكـريَّة الـتي طـبعتْ تكويـنه الثَّقافيّ، كتبَ جـياكومو «*يومـيَّات الحـبِّ الأوَّل*»[4] الـذي عكـسَ،

---

(1) Il Saggio sopra gli Errori Popolari degli Antichi.

(2) L’Appressamento della Morte.

(3) Lo Zibaldone.

(4) Il Diario del Primo Amore.

بالمقابل، تكوينه العاطفيّ الذي تشكّلَ بفعل عشقه المكتوم لابنة عمّه دجِرتروْدِه كاسِّي لاتْزَري. في العام ذاتِه، بدأت المراسلات بينه وبين الكاتب بييترو دجيوردانـي Pietro Giordani الذي كان داعماً لفكرة الأدب الملتزم تجاه الشّعب، وما لبثت تلك المراسلات أن أدت إلى صداقةٍ كبيرة.

بعد ذلك، في عام 1818، كتبَ جياكومو *«ما تحدَّثَ به إيطاليٌّ حول القصيدة الرومانتيكيَّة»*[1]، والذي ساند فيه بقوَّةٍ مناهضةَ الحركة الرومانسيَّة، الموقف الذي سوف يبقى عليه طيلة حياته. ومع تفاقم لا مبالاته تجاه بلده وعائلته، وتأجُّج رغبته بالحريَّة والاستقلاليَّة، قامَ في عام 1819 بمحاولة الهرب، لكن سرعان ما اكتشفَ والدُه ذلك واستقبلَ الأمرَ بهدوء ولم يعطه أهمية.

في بحرِ العامَين 1821 و1822، كان لتلك التجربة الحياتيَّة البائسة، والتي أصبحت رؤيا للعالم آنذاك، أن تُترجَمَ إلى نصوصٍ شِعريَّةٍ فائقةٍ للعادة نذكر منها *«الغناء*

---

(1) Il Discorso di un Italiano attorno alla Poesia Romantica.

الأخـير لـسافُو»[1]، و«*في الرَّبيع، أو حكايا قديمة*»[2]..

في خـريف عـام 1822 حـصل جياكومو على إذن والدَيه بالـسَّفر إلى رومـا ليقـيم لـدى قريبه كارلو أنتيتشي، في محـيطٍ لطالمـا حلـم بالعـيش فـيه، لكـن لم يلـقَ حسن الـضِّيافةِ مـن جهـة، ولـم يجـد عملاً يتناسب مع وضعه دون المسِّ بكرامته.

في العـامَين التالـيَين، وبعـد عـودته المهزومة إلى رِكاناتي، غاص ليوباردي في قلب النَّواة العميقة لتأمُّلاته الفلـسفيَّة، وكـتبَ الجـزء الأعظـم مـن عملِـه «*غنائيَّات روحيَّة*»[3].

عرضَت عليه دار نشر سْتلاَّ، عام 1825، عملاً في ميلان، لكن، وهو المرتاب من الأجواء الأدبيَّة الرَّسميَّة المحـيطــة بفينتشِنتزو مونتـــي Vincenzo Monti، فضَّل الانـتقال إلى مديـنة بولونـيا حيث عاش فترةً من الصَّفاء النِّسبيِّ، رغـم عـشقه الـثَّاني من طرف واحد للكونتِسَّه تِرِزا كارنيان مالفِتزي.

---

(1) Ultimo Canto di Saffo.

(2) Alla Primavera o delle Favole Antiche.

(3) Operette Morali.

في عـام 1827، أصـدرت دار سـتلاَّ للنَّـشر عملَـه «*غنائيَّات روحيَّة*»، وانتقلَ إلى فيرِنتسه حيث تعرَّف على كـتابات Vieusseux، الـتَّجمُّع الذي كان من بين أعضائه كابُّـــوني Capponi، تومَّاســيُو Tommaseo، وكولِّــتَّه Colletta. في العـام اللاحق، أقامَ ليوباردي في بيزا معلناً عـودته إلى الـشِّعر بنصَّين غنائيَّين هما «*القيامة*»[1] و«*إلى سيلفيا*»[2].

واصلَ، خلال عام 1829، إنتاجَه الشِّعري بغزارة، وذلــك في بلدتــه رِكانــاتي، حــيث أنجــزَ غنائــيَّاته «*الذِّكــريات*»[3]، «*ســبتُ القــرية*»[4]، «*الهــدوء بعــد العاصــفة*»[5]، و«*الغناء الليلي لراعٍ متجوِّل من آسيا*»[6]؛ لـيعود سـنة 1830 إلى فيرِنتـسه بـدعمٍ ماليٍّ من أصدقائه هـناك والَّـذين مـا كانـوا ليوفِّـروا مناسـبةً دون إغـراق سـوداويَّته بالـنَّقد، الأمـر الـذي كان يقوده إلى الانزواء

---

(1) Il Risorgimento.
(2) A Silvia.
(3) Le Ricordanze.
(4) Il Sabato del Villaggio.
(5) La Quiete dopo la Tempesta.
(6) Il Canto Notturno di un Pastore Errante dell'Asia.

وعـدم المـواجهة. ومـرَّةً أخرى، كما لو أنَّها سمةُ حياته الـتي لا تُمحـى، يقعُ ليوباردي من جديد في حبٍّ فانّي تارجـوني توتْـستّي، حبٌّ ثالثٌ غير متبادَل. هذا الشُّعور ألهمـه القـصائد الخمـس: «*الفكـر المسيطر*»[1]، «*حبٌّ وموت*»[2]، «*إلى ذاته*»[3]، «*كونسالفو*» و«*أسباسيا*»[4]، التي كُتِبَتْ بين عامَي 1831 و1835.

معذَّباً مادِّياً وصحياً، ونائياً بنفسِه عن أصدقائه، لم يكـن مـنه سـوى أن انتقلَ في عام 1831 إلى روما ليلحقَ بأنتونـيو رانـييري Antonio Ranieri المنفي إلى هناكَ من مدينـته نابـُّولي، حـيث ربطـته به علاقةٌ وطيدة. عاد بعد ذلـك، لفتـرةٍ وجيـزةٍ، إلى فيرنتـسه، بـيد أنَّ المعارضة القـويَّة لمواقفه من قبَل المواقف السَّائدة آنذاك كانت قد بـدأت تتجلَّـى بوضـوح، في عام 1832، كتبَ ليوباردي غنائيَّته الرُّوحيَّة «*حواريَّة تريستانو وأحد الأصدقاء*»[5].

---

(1) Il Pensiero Dominante.

(2) Amore e Morte.

(3) A se stesso.

(4) Consalvo e Aspasia.

(5) Dialogo di Tristano e un Amico.

في الفتـرة الممتدَّة بين عامَي 1833 و1835، استقرَّ في نابُّـولي مـع رانييري الذي مثَّلت علاقته به، عند تلك الـنُّقطة، صلته الأكثر أهميَّةً بالعالم الخارجيِّ؛ وقد كتبَ في تلـك الفترة «*تتمَّةُ الباتراكوميوماكيا*»[1]، وهي قصيدة تنـتقد نـواحٍ عديدة منها ليبراليِّي فيرِنتسِه، وكذلك كتبَ نصَّاً جدليَّاً بعنوان «*معارضَة الماركيز دجينو كابُّوني*»[2].

انـتقلَ لـيوباردي سـنة 1836 إلى مـنزلٍ بعـيدٍ عـن المـناطق المأهـولة، هاربـاً مـن الكـوليرا، وهـناكَ كتبَ أغنـياته «*غـروب القمـر ونبـتة الوزَّال*»[3]، وهي أشبه ما تكـون بالوصـيَّة الأخـيرة، حـيث مـاتَ سـنة 1837 في نابُّولي.

(1) Paralipomeni alla Batracomiomachia، والباتـراكوميوماكيا هـي عنوان لقصيدة هزليَّة تنسب لهوميروس.

(2) Palinodia al Machese Gino Capponi، وتعني بالينوديا فنَّ معارضة نصٍّ شعريٍّ سابق بنصٍّ جديد.

(3) Il Tramonto della Luna e la Ginestra.

قوَّة السَّوداويَّة

كــان جياكومو ليوباردي مهمَّشاً سواءً على مستوى الحـياة الثقافـيَّة أو تلـك الشَّخـصيَّة، وذلـك نـسبةً إلى الأحـداث التاريخية الكبيرة وكذلك إلى الثقافة المسيطرة في ذلـك الـوقت والمتجـسِّدة في "الرُّومانسيَّة" التي كان لـه، مـنذ عـام 1830، جدلٌ فرديٌّ قاسٍ معها، فقد كان في غايـة الحـذر مـن طـرق وأهـداف الجدل السَّائد في أوروبا عموماً حول تلك المرحلة.

أيَّاً يكن، فحالته تلك لم تكن سوى ثمرة ما اختاره تفكـيرُه مـن جهـة ومـا طُبعت عليه حياته الشخصية من جهـةٍ ثانـية، لكـن، يمكـن القـول إنَّ تلك العزلة وذاك الاخـتلاف قـد تعاضـدا علـى خلـق عظمـته الـشِّعريَّة وأصـالته الفكـريَّة اللـتَين لا يمكـن فصلُ واحدتهما عن الأخرى.

أمَّـا الـنِّقاط الأكثـر إلماعـاً بـين تأمُّلاتـه فكانـت: اعـتقادُه بـأنَّ جميع البـشر مدفوعـون لإرضاء حاجاتهم وتحقـيق المتعة حتَّى ولو مُنيت محاولاتهم بالإحباط مرَّةً إثـر مـرَّة، إعطاؤه قيمةً مركزيَّةً للجسد والمادَّة (الإنسان

مـادَّةٌ ثقـيلة) كمـا يقـول، ضـدَّ جمـيع الأفكار الرُّوحيَّة والدِّينـيَّة، وطـبعاً رؤيـاه التـشاؤميَّة للوجود. وحقيقةً أنَّ ضـعفه الجـسدي، واعتباره الإنسانَ كائناً ناقص التَّكوين يـتَّجه نحـو الفـناء، وتمـزُّقَه مـا بين حدود الجسد وبين الـرَّغبة بالحـرية، عـلاوةً علـى عجـزه حـيال تدهـوره الجِّسمانيّ، قد تآزرت جميعها على إحاطة قدرِه بالألم.

بعـضُ أفكـاره كانـت حاضرةً، من قبل، في ثقافة القـرن الـثَّامن عشر التي مع كونها أكثر إيجابيَّةً في مسألة الثِّقة بإمكانيَّات الإنسان غير أنَّها قدَّمت الومضات الأولى لظاهـرة الـسوداويَّة. وقـد حمـل ليوباردي، وإلى أقصى الحدود، التناقض ما بين التَّجديد [Progressismo] الذي يعـتقد بالـتَّقدُّم المتواصـل وغـير المحـدود في الـتاريخ الإنساني، وبين السَّوداويَّة [Pessimismo] التي تعتقد بأنَّ بعض الجوانب في الإنسان لا يمكن تغييرها.

هدَّمت السَّوداويَّة المتمثلة في فكر ليوباردي النَّسقَ التقدُّمـيَّ للـتاريخ على مرحلتين، سمِّيَت الأولى، والتي بـرزت عـندما كـان في العـشرين من عمره، بالسَّوداويَّة الواقعـيَّة؛ اعتـبر لـيوباردي في أثـنائها أنَّ حـزنه الفرديّ

الخاصّ سويَّةً مع الحزن المجتمعيِّ العامّ هما عاقبة الشَّلل والرُّكود اللذَين وصلت إليهما إيطاليا وأوروبا في تلك الحقبة وولَّدا أجواءً من العَطَلِ، والضَّجر، وعقم الفِكر والرُّوح، لكن في أعماقه كان مازال ثمَّة فكرٌ حيٌّ يطمح إلى تحقيق الأنموذج المثاليِّ لمجتمعٍ حرٍّ، أو أكثر حرِّيَّةً، حيث يمكن للطَّاقات أن تفصح عن نفسها وللإنسان أن يعيش رؤاه مثلما يراها.

في المرحلة الثَّانية، والتي ستستمر طيلة ما بقي من حياته، يعبُر ليوباردي نحو السَّوداويَّة الكونيَّة، نحو الإيمان بأنَّ حزن الإنسان له أسباب طبيعيَّة وليست اجتماعيَّة كما يُظَنُّ، ولذلك فهو حزنٌ جوهريٌّ غير قابلٍ للتحوير. إنَّ الهبات المختلفة للطَّبيعة الأم والعمياء ليست غيرَ الأمراض، والشيخوخة، والموت، التي تحكم ثلاثتُها على الإنسان بالحزن المحقَّق.. الخلوصُ إلى هذه النتيجة أسهمت فيه، بلا شكٍّ، حالته الجسديَّة، بيد أنَّ الإسهام الأكبر هو لوعيه بحقيقة ذاته، والذي كان سبيلاً إلى معرفةٍ عميقةٍ بأحوال الإنسان.

هذا الوعي بوحدة المصير والألم لم يسُق المفكِّر

إلى التَّصرُّف كضحيَّة، وإنَّما على العكس من ذلك، ساقَه الأمر إلى الانشغال بتأسيس أفكاره القائلة بأنَّ الإنسان يجب ألاَّ يُختزَل إلى أوهام، وإنَّ عليه أن يكون متحمِّلاً للكربِ والعزلة، بل إنَّ الوعي بالعزلة والهشاشة في مواجهة ما يثقل العاتق هو ما يفضي بالإنسان إلى تكوينٍ أصيلٍ كامل الاتِّحاد.

توخَّى ليوباردي طرح أفكاره عبرَ تجريب أجناسٍ مختلفة من الشِّعر وأجناسٍ مختلفة من النَّثر، بأسلوبٍ يتَّسم، حقَّاً، بالأصالة والفرادة، وهذا ما بدا واضحاً حتَّى في ترجمات كتبه. إنَّ تجربته الشِّعريَّة، في الواقع، لا يمكن إلحاقها بنزعةٍ محدَّدة؛ فهو يزاوج بعض مضامين الكلاسيكيَّة، من حيث استخدام إيقاع وشكل القصيدة الإغريقية واللاتينيَّة، ببعض مضامين الرومانسية الأوروبيَّة (برغم انتقاداته لها) من حيث: النزوع نحو المُطلَق، فقدان الفرد، البحث عن روحانيَّة فلسفيَّة وليست نفسيَّة، الألم الكونيّ.. أمَّا على صعيد الشَّكل، فلم تكن لتُعوِزُه الصَّنعة الأصيلة لخلق مفردةٍ شعريَّةٍ تكون الحاملَ لكثيرٍ من المعاني المحتملة، وتعبِّر عن السِّمة اللامحدَّدة للمشاعر والصُّوَر.

بالنسبة إلى ليوباردي، تمثِّل القصيدة الغنائيَّة الجنس الشِّعريَّ الأكثر أصالةً، لأنَّها الأقرب إلى العاطفة وإلى الموسيقى؛ هي الأكثر تقادُماً والأكثر حداثةً في آن.

هكذا، فمواضيع شِعرِه هي هي مواضيعُ فِكرِه: انمحاء الفرد في المكان والزَّمان، ضياع أوهام الشباب، البحث اللامُجدي عن المُتعة، الحدس الكونيُّ الفائق.

رؤىً وأفكار ما زالت، إلى اليوم، تشكِّل أعمدة تساؤلاتنا الوجوديَّة.

توطئــة

خــلال إقامــته في نابُّــولي، شرع ليوباردي بالعمل على إعداد مجموعةٍ من أفكاره الفلسفيَّة للطِّباعة، وكان قد اقتطفَ أكثرَها من كتابه «الشَّذرات»؛ وقام قبل بضعة أشــهرٍ مــن وفاته بإرسال رسالةٍ إلى De Sinner يعلن فيها رغبــته بنشر مجلَّدٍ يضمِّنُهُ أفكارَه في الإنسان وأحواله في المجــتمع[1] (Epistolario, VI). في السنوات الأخيرة من حــياته، والتي تميَّزتْ بإنتاجٍ إبداعيٍّ محموم وبتوقٍ عارمٍ إلى الإيغــال في أعماق فِكرِه يشحذه وينقِّبُ فيه، تجلَّت بوضــوحٍ حاجــة الــشَّاعر عــندما يكون فيلسوفاً إلى إعادة تنظيم الكثير من الملاحظات التي كان دوَّنها في الماضي حولَ سلوك الإنسان، الذي كانَ لهُ ليوباردي مراقباً ثاقب

(1) Un volume inédit de Pensées sur les caractères des hommes et sur leur conduite dans la société.

النَّظـرة، ومـثل سـائر المـؤلِّفين الكـبار مـن سـابقيه، كباســكال Pascal، مونتانْــي Montaigne، وروسُّــو Rousseau، أراد لـيوباردي أن يجعل من تجربته الحياتيَّة أرضيَّةِ بحثٍ يستطيع من خلالها ملاحظة وجمع السِّمات المشتركة في شخصيَّة الإنسان أينما وجدَ من العالم.

الفكـرة المبدئـيَّة بـأن يقـتطف مـن *«الـشَّذرات»* مجمـوعةً مـن أروع اليقينـيَّات، تلكَ المكتوبة بإحساسٍ رفـيعٍ من جهة حريَّة الفكرة ووحدة النَّصِّ والمتولِّدة عن الـبرق الخاطـف والفـوريِّ للعاطفـة - أقول، كان لهذه الفكـرة جـذورٌ عـميقة وقديمـة في نفسـهِ، فهي لم تكن ولـيدة اللحظـة، غـيرَ أنَّ لـيوباردي مـات قبل أن يحقِّق رغبته. وراءَ ذلك، كان أنتونيو رانييري، صديقه المقرَّب ورفيق سنواته الأخيرة، هو مَن حقَّق تلك الرَّغبة في سنة 1845، واهباً الحياة لمئةٍ وإحدى عشرة فكرة.

بكـلِّ تأكـيدٍ، حـاولَ رانـييري أن يكـون تابعـاً مخلـصاً، لكن من المستحيل التَّعمية على الصُّعوبة التي واجهته في محاولته التَّعويض عن حساسيَّة وحُكم مؤلِّفٍ مـثل لـيوباردي معروفٍ بقلقه وشكِّه المستمرَّين واللذَين

كانـا يـبلغان حـدَّ التَّطـرُّف في معالجـة شـكل نـصوصه ومضمونها.

في الـوقت نفسه، رأى آخرون أنَّ كتاب «*الأفكار*» يقـدِّم ينـبوعاً فـوَّاراً مـن الإلهـام نحـو المعرفة الحكيمة بالإنـسان، مهما صغُرَت، وما قد يلوح للبعض على أنَّه افتقارٌ إلى التَّجانس، لا يمكنه الحؤول دون القبض على الآثـار الرَّائعة لفكرِ ليوباردي، وما قد يبدو كذلك جفافاً نغمـيَّاً لـن يكـون مانعـاً أمـام قدرةِ نصوصه على توريط القارئ بالمشاركة الوجدانيَّة.

أفكـــار

I

لطالما رفضت التَّصديق بحقيقة الأشياء التي سوف أقولها هنا في الأسفل، ذاك أنَّه، علاوةً على البعد السَّحيق بينها وبين طبيعتي، وعلى النُّزوع الدَّائم لنفسي إلى الحُكم على الآخرين حسب نزعاتها الخاصَّة، لم يكن عندي، مطلقاً، ميلٌ إلى كُره الإنسان، وإنَّما إلى محبَّته فحسب. في النِّهاية، كانت التَّجربة هي ما أثبتت لي ذلك، وعلى نحوٍ قاسٍ؛ وإنِّي لعلى ثقةٍ بأنَّ هؤلاء القرَّاء الذين حتَّمت عليهم الحياة أن يجرِّبوا أصنافاً عديدة من البشر سوف يؤكِّدون على سدادِ ما أنا في واردِ قولِه، فيما سوف ينزع الباقون إلى أخذه مأخذَ المُبالغة، إلى أن تضعه التَّجربة ذات يومٍ نصبَ أعينهم، هذا إذا هم حَظُوا حقَّاً بفرصةٍ تتيح لهم معرفةً حقيقيَّةً بطبيعة المجتمع البشري.

أقول: إنَّ العالم عبارةٌ عن ثلَّةٍ من المرائين في مواجهة الإنسان الخيِّر، وعن عُصبَةٍ من ذوي النفوس

المنحطّة مقابل ذوي النفوس السامية. وعندما يجتمع اثنان من الصّنف الأوّل صدفةً في المكان نفسه ودون سابق معرفة ببعضهما، يكونُ ثمّةَ ما يشبه الإشارات التي تلمع فيما بينهما، سرعان ما يتعارفان على أساسها، ويتّفقان فوراً على حقيقتهما الواحدة المُضمَرة؛ أمّا إذا لم تمِل بهما ميولُهما هذا المَيل، فسوف يحاولان حتماً حمل واحدهما الآخَر على كشف الحُجُب عن مواقفه، وينشأ إثر ذلك احترامٌ متبادلٌ بينهما. قد يحتدم جدالٌ بين أحد المرائين وبين آخرين منِ فصيلته نفسها، وغالباً عندها ما يُحمَل كلامه محملَ الصِّدق مع معرفتهم عكس ذلك، فإذا وجدَ هذا الشّخصُ ذاتُه برفقةِ جماعةٍ من الشُّرفاء فمن المستحيل ألاّ يتصنّعَ الوفاء لهم، ويحيطهم بأسباب الرّاحة، دون أن يجرؤ على خذلانهم، لاسيّما إذا كانوا أناساً متنفِّذين وقادرين على الانتقام، طبعاً لأنّه يأمل، وهذا ما يتحقّق له دائماً تقريباً، نيلَ استحسانهم بتحايله. عن نفسي كثيراً ما صادفت أناساً يتملّكهم الخوف، واقفين بين إنسانٍ مراءٍ هو في الحقيقة أكثر خوفاً منهم وبين إنسانٍ صادقٍ مليءٍ بالشّجاعة، يعمدون بسبب خوفهم هذا إلى معاضدة الأوّل. ودائماً ما يحدث

أن يجتمع أشخاصٌ عاديُّون في ظروفٍ مماثلةٍ لهذا ويسلكون السُّلوكَ ذاتَه، هذا لأنَّ طرق الإنسان الصَّادق والخيِّر هي طرقٌ جليَّة وبسيطة، أمَّا طرق الإنسان المرائي فخفيَّة ومتنوِّعة بلا نهاية. الآن، كما يعلم الجميع، فالأشياء المجهولة تخيف أكثر من الأشياء المعروفة، وببساطة يعمد المرء إلى أخذ الحذر من انتقام الصَّادقين، فيما يظنُّ الآخرُ أنَّ الخوف والجُبن هما نفسهما ما ينجِّيانه من ذلك. بيد أنَّ هذا الخوف وذاك الجُبن لن يكونا، بطبيعة الحال، كافيَين للخلاص لا من التَّعذيب السِّرِّي في باطن النَّفْس، ولا من الوعيد المبطون، ولا حتَّى من الاضطهاد الظَّاهر الذي لن يتوانى العدوُّ، على رعونته، عن إنزاله به.. عموماً، في الحياة اليوميَّة، قليلاً ما يُخشى جانبُ الشُّجاع الحقيقيِّ؛ ربَّما لأنَّ جهله بأشكال الكذب يجعله مفتقراً لذلك التَّكوين الذي يحيلُ الأمور فظيعةً ومرعبة، والأفظع من ذلك هو أنَّ هكذا شخص، في الغالب، لا يُصدِّقه الآخرون، في حين يُهابُ المرائي كما لو كان شجاعاً حقيقياً، لأنَّ الكذب لطالما مَوه الشَّجاعة.

قِلة هم المراؤون الفقراء، لأنَّه، عدا عن كلِّ

شـيء، فقـرُ الإنـسان الخيِّـر لا يقيم في ذاكرة أحد، بل كثرٌ من يفرحون لفقرِه، أمَّا إذا حالت أحوال المرائي إلى الفقـر، فكـلُّ المعمورة تهبُّ إلى نجدته. لذلك أن يُعزى إلى أنَّـنا، في طبـيعة تكويـننا، نخافُ على أنفسنا من أن يمسسنا شرّ مُصابٍ من هم حولنا أو برفقتنا، فترانا نسرعُ بكـلِّ طواعـيةٍ إلى غمـرهم بعنايتـنا، لا لـشيءٍ، ولكـن إدراكـاً مـنَّا أنَّ الـتَّخاذُلَ عـن ذلـك سـيولِّدُ في داخلـنا إحـساساً جليَّاً بالرُّعب، أنَّه في ظروفٍ مماثلة كان يمكن لـذلك أن يحـصل لـنا. في زمنـنا، أشرار العالم الفائقون عـدداً وسـلطةً، يحـيطون أنفـسهم بجمـيع مَـن هم مِن زمرتهم، حتَّى بأولئك غير الواقعين في مدى أبصارهم، ويـتخذونهم خاصَّـةً لهـم. هكـذا، في ساعات الحاجة، يطمئـنون إلى الـشُّعور بـأنَّهم مـسنودون بـتلك الوحدة. بالنـسبة لهـؤلاء، هـي فـضيحةٌ كُـبرى أن يُـرى شخصٌ معـروفٌ بإفكـِه في حـالٍ مـن الـبؤس يُرثـى لها وهو ما يحـبُّون أن يطلقوا عليه مصطلَحَ «المُصاب الإلهي»، لأنَّ هـذا مـن وجهـة نظرِ العـالم، الـذي من عادته أن يقدِّر الأفَّـاك، أمـرٌ يخدش المعاني الأخلاقيَّة، ما من شأنه أن

يـدور بدائـرة الخـزي علـى الجميع. لهذا، ودرءاً لهكذا فـضيحة، تراهم يتكافلون على نحوٍ مؤثِّر، باستثناء طبعاً بعـض النَّاكـثين بالعهـد الـذين ينقشع الضَّباب فجأةً عن غاياتهم المستترة، وبالنتيجة فإنَّ من النادر أن يقع الشرير في حظٍّ سيىء ثمَّ لا ينهض منه دون أن يخسر شيئاً.

وعلـى عكـس ذلـك، فالطَّيِّـبون والأخـيار، باخـتلافهم عـن الشَّائع، يبدون كائنات من جنسٍ آخر، فـلا يقـف الحـدُّ فقـط عـند عيافة رفقتهم، بل يمتدُّ إلى اعتـبارهم غير شركاء في الحقوق المجتمعيَّة، وكما يُرى فهـم دائمـاً مـضطهَدون، صـغُرَ أو كبُـرَ شـأن ذلـك الاضـطهاد. كـلُّ هذا، انحطاط النَّفس البشريَّة، وشرور الحـياة والـنَّاس الـذين يـصارعون للعـيش بيـنهم، جليَّةٌ للجمـيع؛ فكمـا في جسد الحيوان تنزع الطبيعة إلى حلِّ نفسها من الميول والرَّغبات التي لا تتلاءم معها من جهة أنَّهـا لا تـتلاءم وذاكَ الجـسد، كذلك الأمرُ في كثيرٍ من المجـتمعات الإنـسانيَّة، حـيث تـنزع بها نفسُ الطَّبيعة، قُـبالةَ المخـتلِف عـن العـامِّ والخـارج عـن الاعتـياد، وبـالأخصِّ إذا مـا كـان هـذا الاختلاف محمولاً بالتمرُّد

على الشَّائع- أقول تنزع نفسُ الطَّبيعة الحيوانيَّة بهذه المجتمعات إلى سحق المختلف أو عزله بكلِّ قوَّةٍ ممكنة. ومهما يكن، فمن المعتاد أن يكون الطَّيِّبون والأخيار مكروهين هكذا، ذاك أنَّهم صادقون ويسمُّون الأشياء بمسمَّياتها. خطيئةٌ غير مغفورةٍ للجنس البشريِّ، هذا الذي لا يستطيعُ أن يكره أبداً صانعي الشَّر، ولا حتَّى الشَّرَّ نفسَه، بقدر ما يستطيعُ كُرهَ من يسمِّيه. في أكثر الأحيان، فيما ينشغلُ صانعُ الشَّرِّ بنيل الغنى والشَّرف والقوَّة، يُجَرُّ مُسَمُّو الشَّرِّ إلى منصَّة الإعدام، لأنَّ هذا الكبش المُنَجِّي جاهزٌ دائماً لمعاناة أيِّ شيءٍ قد يأتي من الأرض أو من السَّماء، لأجل خلاص الآخَرِ غيرِ المستحِق.

II

قلِّب في حياة الرِّجال اللامعين، فإن أنت نظرت إليها كما هي، أعني إلى أفعالهم وليس إلى كتاباتهم، ثق بأنَّ ما سوف تجده بعد عناءٍ كبير أن الرِّجال العظماء بحقّ ما هم، إلا ممَّن لم يفقدوا الأب في أعمارهم المبكرة. لكن، في الوقت ذاته، يبدو المرء الذي والده

على قيد الحياة، عموماً، رجلاً مُخَلَّع اليدين لا حولَ له في مواجهة العالم، بل هو في أكثر الأحيان ما يكون شخصاً مكتفياً بالتَّرقُّب والأمل دون إعمال الفِكر في سبيل الحصول على ما يطمح إليه بجهده الذَّاتي. وهذا في حدٍّ ذاته قد يصنع بعض اللامِعين، إنَّما في ظروفٍ جد استثنائيَّة، لأنَّه في الغالب ما يقيَّضُ لأولئك الذين يأتون بالأفكار العظيمة قدرٌ كبيرٌ، أو أقلُّه كافٍ، من حسن الطَّالع منذ البداية. ولكن، دعنا من كلِّ هذا، إنَّ السُّلطة البطريركيَّة [الأبويَّة] في مختلف البلدان ذات التَّشريعات تجيءُ معها بعبوديَّة الأبناء. ومهما ادَّعتْ التأنسن تظلُّ هي الجاثم الأكبر على صدر الفرد، ومهما عُدِّلتْ أو لُطِّفتْ أو مُوِّهَت سواء من قبل التَّشريعات نفسِها، أو من قِبل الأعراف العامَّة، أو حتَّى من قِبل الخصوصيَّة الفكريَّة للفرد، تبقى هي الشرُّ المطلق الذي لا يني يتناسل في ذاتِه: في الحقيقة، هذا هو الشُّعور الذي يعتري المرء ما دامَ أبوه حيَّاً، ويحمله معه مُضمَراً في أعماق النَّفس، هذا هو على الأقل ما لا يمكنني تجنُّب رؤيته عند الأكثريَّة، إنَّه الشُّعور بالتَّشيُّؤ والتَّبعيَّة،

بعـدم الامتلاك لحريَّة الذَّات، بل أكثر من ذلك، لنَقُل، بعـدم الامتلاك الكامل للذَّات؛ هو شعور المرء بأنَّه جزءٌ مِـن أو عـضوٌ مِن، لا أكثر ولا أقل، وبعائديَّة اسمه إلى ذاتٍ غـير ذاتـه. ولعلَّـه شـبه مـستحيل أنَّ شعوراً كهذا، الـذي هـو أكثـر عمقاً لدى أولئك الواعين بفطرة الأمور بحكـم أنَّ نفوسـهم الـيقظة تجعلـهم أكثر إحساساً وأدق صوابيَّةً في فرز الحقيقة من الزَّيف، قد يترافق سويَّةً مع، لـن أقـول «صنع»، وإنَّما «تصميم» أيِّ شيءٍ عظيم. ثمَّ، بعد مضيِّ سنوات الشَّباب التي قضاها على ذاك الحال، يـستيقظ المـرء الـذي هو اليوم في الأربعين أو الخمسين من عمره، على الشُّعور، وللمرَّة الأولى، بقوَّة الرَّفض؛ وإذ إنِّـي لا أريـد المـبالغة بالقـول إنَّه باتَ من العبث أن يحـاول تلبـية تلـك الرَّغبة، فسأقول: ليحاول، ولكن لا طاقاتـه ولا الـوقت كافـيان لإنجاز أشياء عظيمة. هكذا، أيـضاً مـن هذا المنظور، يُبرهَن على أنَّه لا يمكن للعالم أن يمتلك الخير ما لم يكن مصحوباً بشرٍّ من نفس قياسه: فالقيـمة الـتي لا تقـدَّر لأن يحظى المرء في صباه بحذوةٍ مُحِبَّةٍ يعوَّلُ عليها في الصِّعاب، ما لا يمكن أن يكون غير

الأب، بـات ينوب منابَها نوعٌ من الفراغ المُخيف، فراغ الشَّباب وفراغ الحياة.

III

يمكـن قياس المعرفة الاقتصاديَّة لهذا القرن بالنَّظر إلى واقـع الطِّباعة الآخذة بالتَّقلُّص والانكماش، ذاكَ أنَّه أنَّـى صـارت خـيارات العـين لا تُحصى وقلَّت مطالعتها للـورق. ومـع أنَّـه لا أجمـل مـن أن يُدَّخـرَ الـورق في الكـتب، كحامـلٍ للفِكـر، غـير أنَّ هـذا لا يعفيـنا مـن الاعتـراف بـأنَّ الـدَّارجَ في هـذا القرن هو أنَّه باتَ يُطبَع الكـثير ولا شـيء، في المقابـل، يُقـرأ. وإلى هذه العادة الدَّارجـة نفـسها يمكـن أيـضاً أن ننـسبَ العـدولَ عـن اسـتخدام الأحـرف اللاتينـية المـدوَّرة، الـتي شـاع اسـتخدامها في أوروبـا مـنذ قـرونٍ خلـتْ، واسـتبدالها بالأحـرف الطُّولانيَّة الحديثة، زِد على ذلك رقَّة وشفافيَّة الورق؛ شيءٌ مع أنَّه جميلٌ للنَّظَر، لكنَّه أكثر أذىً للعين أثناء القراءة. أو لعلِّي مخطئٌ، وهذا هو المنطقيُّ في زمنٍ باتـت فـيه الكـتب تُطبَع لأجل العين التي تنظُر لا لأجل العين التي تقرأ.

IV

ما يتبع، ليس فكرة، وإنَّما حكاية، وأنا أدرجها هنا لتسلية القارئ. كان أحد أصدقائي، أقصد رفيق حياتي، وهو الشَّاب أنتونيو رانييري يعيش معي في فِيرِنتسهِ سنة 1831. في إحدى العشيَّات الصَّيفيَّة، وفيما كان يجتاز أحد الشَّوارع المظلمة، رأى عند إحدى زوايا ساحة "دومو" وتحت نافذةٍ أرضيَّةٍ من العمارة التي هي اليوم لعائلة ريكَّاردي، حشداً كبيراً من النَّاس، وجميعهم كانوا يهمسون وقد تملَّكهم الرُّعب: أوه، الشَّبح! نظر صديقي تلقائياً إلى تلك النَّافذة، حيث لم يكن ثمَّة مِن نورٍ في الشَّارع غير النُّور المتساقط داخل تلك الغرفة منبعثاً من إحدى منارات المدينة، ورأى ما يشبه خيال امرأةٍ، كانت تقذفُ بذراعيها هنا وهناك فيما باقي جسدها جامدٌ لا يتحرَّك. ولأنَّ رأسه كان مشغولاً بأفكار كثيرة آنذاك، فقد عبرَ بلا اكتراثٍ، حتَّى أنَّه لم يذكر ذاكَ المشهد لا في الليلة ذاتها ولا في النَّهار الذي تلاها. في العشيَّة التَّالية، وفي السَّاعة نفسها، حدثَ أن مرَّ بالمكان نفسه، فرأى جمعاً من النَّاس أكبر من ذاك

الذي رآه بالأمس، وسمعهم يكرِّرون بالرُّعب ذاته: أوه، الشَّبح! ولمَّا نظر خلف النَّافذة، شاهد الخيال نفسَه، مرَّةً أخرى وبلا إبداء أيِّ حركةٍ سوى التَّلويح العنيف بالذِّراعين، لم تكن النَّافذة أكثر علوّاً عن الأرض من قامة رجُل، وكان رجلٌ تبدو عليه هيئةُ الشُّرطيِّ يقول: لو أنَّ أحدكم يرفعني على كتفيه لتسلَّقتُ ونظرتُ ماذا يوجد في الدَّاخل، هنا تدخَّلَ رانييري مقترحاً: إذا ساعدتموني، أتسلَّقُ أنا وأنظر، وهكذا، رُفِعَ صديقي نحو النَّافذة متسلِّقاً الأكتاف الكثيرة بقدميه، وسرعان ما صار عند القضبان الحديديَّة للنَّافذة ليرى السِّرَّ؛ كان ثمَّة رداءٌ طويلٌ أسود مرخيً على مسند كرسيٍّ، وكانت الرِّيح تعبث في كُمَّيه صانعةً مشهد الذِّراعَين المتقاذفتَين ذاك؛ وفوق الكرسيِّ وُضِعَ على المسند نفسه مغزلُ صوفٍ، وهو ما لاح وكأنَّه رأس الخيال، وما كانَ من رانييري إلاَّ أن قبض بيده على المغزل، ولوَّح به للجمع المحتشد الذي ما لبث أن اختفى على وقع الضحكات المجلجلة.

لكن، لم هذه الأقصوصة؟ هي حتماً، وكما كنت

قد ذكرت، للتّرويح عن القرّاء، ولسببٍ آخر في الحقيقة، يتمثّل بالشّك الذي ينتابني، في أنّها كما يبدو، لا زالتْ أمراً مفيداً بالنسبة للنّظريّات التّاريخيّة وللفلسفة معرفةُ أنّه في هذا القرن، وتحديداً في قلب فيرِنتسه، المدينة الأكثر تحضُّراً في إيطاليا، وحيث النّاس خصوصاً هم أكثر وعياً وأكثر تمدُّناً، ما زال هؤلاء يرون الأشباح ويؤمنون بها على أنّها أرواحٌ فيما هي في الواقع مغازل صوفٍ. أعرف، سوف يبتسم الغرباء لهذا، كما اعتادوا أن يفعلوا بطيب خاطر، ولكنّهم، عند التّحقيق، يبتسمون من أنفسهم: ذاكَ أنّه بات معروفاً للجميع أنّ أيّاً من الدُّول الثّلاث العُظمى، كما يطيب للصُّحُف أن تسمِّيها، ليست بأقلّ إيماناً بالأشباح من إيطاليا.

V

في الأشياء الخفيّة، دائماً ما يُرى على نحوٍ أفضل العددُ الأصغر، أمّا في تلك الظّاهرة للعين، فيُرى العددُ الأكبر. لَمِنَ السُّخفِ ذاكَ الإجماع الذي يدعونه بالحدس البشريّ تلقاء الماورائيّات؛ هذا الحدس الذي

لا يقيم اعتباراً لأيٍّ من الحقائق الطَّبيعية، بل ويضعها في الـدَّرك الأسـفل مـن الإدراك؛ كما على سبيل المثال في مـسألة دوران الأرض، وفي ألـف مـسألةٍ غيرهـا. وفي المقابـل، لكم هو خطِرٌ، ومتهوِّرٌ، وأبعد من ذلك، بلا طائـل، التَّـضادُّ مع رأي العـدد الأكـبر مـن الـنَّاس في المسائل المدنيَّة.

VI

لـيس الموتُ مَسَاءَةً، فهو يحرِّرُ الإنسان من جميع الـسُّوء، وسـويةً مـع الخـير، يـنزع منه أيضاً الرَّغبات.. الـشَّيخوخة سـيئةٌ إلى أقـصى الحـدود، لأنَّهـا تـسلبُ الإنـسان كـلَّ أشكال المتعة، تاركةً له الشَّهوات، ومعها جمـيع الآلام. رغـم ذلـك، يخـشى الـنَّاسُ المـوتَ، ويفضِّلون الشَّيخوخة.

VII

لهـوَ، وهـذا لَمِن غرابة القول، استخفافٌ بالموت وشـجاعةٌ أكثـر دناءةً وزرايةً من الخوفِ نفسِه: ما يمكن أن يوصَـفَ بـه أصـحابُ الـدَّكانين وجمـيع أولـئك

الملهـوفين علـى صـنع المـال، ذاكَ أنّهـم في أغلـب المرّات، ولأجل حفنةٍ حقيرةٍ أو وفرةٍ خسيسة، يرفضون بعنادٍ أحمـق إحاطة مدّخراتهم بأسباب العناية والحذر، معرِّضين أنفسهم لمخاطـر جمّـة، حيث ليس نادراً ما ينتهـي الأمـر بأصـحاب الشّجاعة الجبانة هؤلاء إلى ميتةٍ شـنيعة.. عـن مـثل تَـبِعات هـذا الـضّرب المـشين مـن الـشّجاعة، شـوهدتْ أمـثلةٌ أخـرى ذات مغـزى، مـنها الـدّمار والهـلاك الذي حلّ بالأبرياء جرّاء الوباء المسمّى بكـوليرا موربـوس، والـذي ضـربَ الجنس البشريّ في تلك السّنوات الأخيرة.

VIII

أحد الأوهام الفظيعة التي يقع فيها الإنسانُ يوميّاً، اعـتقادُه بأنّ سرّهُ قد امتُلِكَ. ليس فقط السِّرُّ الذي أودَعَه بإرادتـه صدرَ أحدهم، ولكن أيضاً السِّرُّ الذي بغير إرادةٍ منه، أو برغمه، قد رؤيَ أو عُرِفَ من الآخرين، وعندها يـتملَّكُه الـشُّعور بأنّـه قـد عُـرِّيَ.. الحق أقولُ لك، أنت واهمٌ في كلِّ مرّةٍ تظنُّ معها أنّ إحدى خفاياك التي باتت مكـشوفةً للآخـرين انكشافَها لكَ، ولا تحكمْ بأنّها باتتْ كـذلك دون أن تتثبَّت من الحقيقة- أقول، أنت واهمٌ إذا

ظننت أنَّ الأمر سيعود عليكَ بالخزي والأذى. ينزع الإنسان عادةً إلى عدم الكشف عن خفاياه الأكثر حميميَّةً، ولكن بصعوبةٍ بالغة، فبسبب الآخرين لا أحد يبقى صامتاً: وإذا أردتَ التَّحقُّق من هذا، اختبر نفسَك، وانظر كم مرَّةً دفعكَ الأسى أو الأذى أو العار اللاحق بالنَّاس إلى أن تتراجع عن البوح بما تعرفه من أسرارهم، أنتَ لا تتراجع عن البوح إلاَّ لهذا أو ذاك من الأصدقاء، أو حتَّى لأكثر من صديق، ما يعني الشيء نفسَه في النهاية، أن تبوحَ لواحدٍ أو لمئة، في المجتمع البشريِّ، ما من حاجةٍ أعظم من الحاجة إلى الثرثرة، كوسيلةٍ أساسيَّةٍ لتمضية الوقت التي هي بدورها واحدةٌ من أولى ضرورات الحياة؛ وما مِن قضيَّةٍ للثرثرة أكثر ندرةً من تلك التي توقظُ الفضول وتُبعدُ السَّأم - ما لا يلبِّيه غيرُ الأمور الخفيَّة والجديدة - في جميع الأحوال، خذها قاعدةً راسخة: إذا أردتَ ألاَّ يعرف الآخرون بالأشياء التي فعلتها، فليس فقط لا تقلها، ولكن لا تفعلها، وتلك التي لا تستطيع أن تفعلها هي غير موجودة، أو أنَّها لم توجد بعد، لذا كن واثقاً أنها سوفَ تُعرَف، مهما حاولت جهدكَ ألاَّ تتحقَّقَ مخاوفُك.

IX

إذا جاءَ أحدهم، ضدَّ آراء الآخرين، بنبوءاتٍ عن شيءٍ يصدف وأن يتحقَّق فيما بعد، من غير المحتمَل أنَّ سلِّم معارضوه، وقد رأوا البرهانَ، برجاحة فكره ويعتبرونه الأوفر حكمةً أو الأكثر وعياً بينهم؛ بل هم إمَّا سينكرون الحقيقة أو النبوءة، وإمَّا سيعزون الأمر برمَّته إلى المصادفة، أو إمَّا، وبطريقةٍ ما، سوف يبتدعون أسباباً ويبذلون قصارى جهودهم لإقناع أنفسهم وحمل الآخرين كذلك على الاقتناع بأنَّ آراءهم هي الصَّوابُ، وعكسُها هو الباطل.

X

القدرُ الأعظم من الأشخاص الذين نكلِّفهم مهمَّةَ تثقيف أولادنا، نعرفُ حقَّ المعرفة أنَّهم لم يُثقَّفوا، ومع هذا لا نشكُّ في أنَّهم لن يستطيعوا إعطاء ما لم يُعطَوه، وما هوَ في طبيعة الحال شيءٌ لا يُكتَسَب.

XI

هـناكَ فتـراتٌ في الـتَّاريخ، لأجل تعمية الحقيقة، تدَّعـي أنَّهـا من خلال الفنِّ والنَّظريَّات تصنعُ كلَّ شيء، ذاكَ أنَّها في الواقع لا تعرفُ صنعَ شيء.

XII

ذاكَ المـرءُ الـذي بمعانـاةٍ وبـألم، أو بعـد انـتظارٍ طـويلٍ، اسـتطاعَ تحـصيل مـراده، قـد يـرى الآخـرين يحصِّلون الشيء نفسَه بسرعةٍ ويُسر، لكنَّ هذا لن يجعله يخـسر في الحقـيقة شـيئاً ممَّا احتازَهُ، مع أنَّ الأمر يبقى بطبـيعة الحـال مقيتاً وغير عادلٍ، فنحنُ في مخيِّلتنا نرى أنَّ مـا نحققِّـه يغـدو بـلا أدنى قـيمةٍ إذا هـوَ صار مشاعاً للآخـرين دون عـناءٍ يُذكـر. لهـذا الـسَّبب، نجدُ مؤلِّف الأقاصـيص الدِّينـيَّة، الـذي شـدَّ ما يُرهقُ نفسَه في هذا العمـل، يـتألَّمُ لمعـرفته بأنَّ ثمَّة آخرين يعملون أقلَّ ممَّا يعمـل ثمَّ يكـسبون بقـدرِ مـا يكـسب؛ رهـبان بعـض الأخـويَّات الدِّينـيَّة صـار مـن عـادتهم أن يـتعاملوا مـع المبـتدئين بمخـتلف أشـكال الاسـتهتار، خشية أن يبلغ هؤلاء بسهولةٍ المرتبةَ التي بلغوها هم بشقِّ الأنفس.

XIII

وَهْمٌ عذبٌ ومحبَّب، ذاكَ الذي تخادعنا به الذكرى السنويَّة لحدثٍ ما، والتي للحقِّ لا نفعل فيها أكثر ممَّا نفعل في أيِّ يومٍ آخر من السَّنة؛ الحدثُ يذهب ويبقى التاريخ، ولا صلة بينهما سوى ظلال الماضي التي تنهض وتعودُ في يومٍ معيَّنٍ من كلِّ عام، وها هي ذي حاضرة بغيةَ تطبيب النَّفس من الكرب النَّاجم عن زوال ما قد كان، ومحو آلام الخسارات الكثيرة، تدَّعي هذه الدَّورة المختلَقة أنَّ ذاك الذي مضى ولن يعود، لم ينطفئ ولم يتلاشَ. هكذا، يحدث عندما نمرُّ بأمكنةٍ شاهدةٍ على أحداثٍ مضت وذات قيمةٍ تذكاريَّةٍ لنا، أن نهمسَ لأنفسنا، ها هنا كان ذاكَ، وها هنا كانَ ذاك، مصدِّقين، لِنقُل، بيننا وبين أنفسنا، أنَّنا ونحن في هذا المكان نكون أكثر قرباً إلى تلك الأحداث ممَّا لو كنَّا في أيِّ مكانٍ آخر؛ مثل هذا، فعندما نقول أنَّه في مثل هذا اليوم من عامٍ سابقٍ حدثَ كذا أو كذا، فنحنُ بالأحرى نريد القول بأنَّ ذاكَ الحدث هو اليوم أقربُ إلى الحاضر، أو أبعدُ عن الماضي، منه في أيِّ يومٍ آخر. هذا الوهم متجذِّرٌ في الإنسان، إذ من الصعب أن يُسلِّمَ بأنَّ

ذكـرى الـشيء مغايرةٌ لحقيقة الشَّيء في كلِّ يومٍ كما في كـلِّ يـومٍ آخـر: لهـذا، لطالمـا كـان الاحـتفاء الـسَّنوي بالذاكـرة، سـواء تلـك الدِّينـيَّة أو المدنـيَّة، الجمعيَّة أو الفـرديَّة، المتَّـصلة بـولادة مَـن نحـبُّ أو بموتِه، وكثيرٌ سـواها- أمـراً شـائعاً في جمـيع الأمـم التي تمتلك، أو بالأحـرى امتلكت، ذاكرةً وتقويماً. ولقد لاحظتُ، وأنا أفكِّـرُ ملـيَّاً في هـذه المـسألة، أنَّ الأشـخاص مرهفـي الـشُّعور، والمعـتادين علـى العـزلة، أو علـى الـبوح الـباطنيِّ، عـادةً مـا يكونـون توَّاقين للذكريات السَّنويَّة، ويعيـشون، لِـنقُل هكـذا، علـى ذكـرى من هذا النَّوع، غارقين في التخيّلات وقائلين لأنفسهم: في يومٍ من السَّنة مثل هذا اليوم، حدث لي هذا الشيء أو ذاك.

XIV

لـن يكون حزناً قليلاً ذاك الذي قد يحلُّ بالمربِّين، وعلـى رأسـهم الأهـل، إذا هـم فكَّـروا، وهذا في غاية الحقيقة، أنَّ أبناءهم، أيَّاً تكن سجاياهم التي اكتسبوها، وأيَّـاً تكن العناية والكدُّ المبذولان في تربيتهم، ليس من غـير الـوارد، وطـبعاً جـرَّاءَ اختـبارهم لهـذا العالم، ألا

يـتحوَّلوا أوغـاداً، مـا لم يقطع الموتُ عليهم ذلك. لعلَّ هذه الإجابة هي أقوى حجَّةً وأوفر منطقاً من إجابة تاليتِه *Talete*، الـذي عـندما سـئِلَ من قبل سولون *Solone*[1]: لمـاذا لا تتـزوَّج؟ أجـابَ بأنَّـه قَلَـقُ الآبـاء ممَّا قد يحيق بالأبـناء مـن المخاطـر وسـوء الطَّالع ما يمنعه من ذلك. أقـول- لعلَّـه أقوى حجَّةً وأوفر منطقاً العذرَ القائلَ بعدم الرَّغبة بزيادة عدد الأوغاد.

XV

كـانَ شـيلون *Chilone*، أحــدُ حكمــاء الــيونان الـسَّبعة، يطلـبُ مـن الـرَّجلِ قويِّ البنية أن يكون لطيف المعـشر، لأنَّ هـذا في الـنِّهاية، كمـا يقـول، يولِّد لدى الآخـرين تجاهه شعوراً بالإجلال بدل الخوف. ليس أبداً بأمرٍ مُـبالَغٍ فـيه التَّحلِّي بدماثة الخلُق، وعذوبةِ الرُّوح، وبشيءٍ من التَّواضع لدى أولئك الذين هم، إمَّا لجمالهم أو لعبقريَّتهم أو لأيَّة سمةٍ أخرى هي موضع رغبة البشر، مـتفوِّقون علـى العـامِّ: هـذا أنَّـه جدٌّ صارم الذَّنب الذي

---

(1) مشرِّع أثيني مشهور (640-560 قبل الميلاد)، المترجم.

علـيهم أن يتوسَّلوا بسببه الغفران إذا همُ اقترفوه، ولَهُوَ جدٌّ مذلٌّ وقاسٍ العدوُّ الذي عليهم تسكين غضبه. الأوَّلُ التَّـرفُّعُ، الآخَرُ الحسَد. مثل هذا، اعتقدَ القدماء، عندما كانوا ينالون العظمةَ أو الرَّخاء، بأنَّ ما من شأنه أن يسكِّنَ في داخلـهم الآلهـة، هـو التَّحـرُّر بالتذلُّل وبالأضاحي، وبالكفَّـارات الطَّوعـيَّة من خطيئة الفرح أو التَّفوُّق القابلة للامِّحاء.

XVI

سـواءٌ علـى الخاطـئ أو علـى الـبريء، يقـول الإمـبراطور أوتـو *Ottone* مخاطـباً تاسـيتوس *Tacito*، فالـنِّهاية المعـدَّةُ لهمـا واحـدة، ذاكَ هـو عـدلُ الموت. ظنِّـي، لـن تخـالفني الـرَّأي تلك الأفكار الموجودة عند بعـض أولئك الذين يملكون روحاً عظيمة ومفطورةً على الخـير، في أنَّهـم مـا أن يخـرجوا إلى العـالم، ويختبروا النُّكـران والجَـور والـضَّراوة الفظيعة للإنسان حيالَ أخيه وبأكثـر حـيالَ الطَّيِّـبين، حتَّـى يعانقـون الخـباثة؛ لا لانحـرافٍ أصـابهم، ولا لأنَّهـم مـستثنون مـن القاعـدة لضعفهم، ولا أيضاً لرغبةٍ أو طمعٍ بالمستضعفين البسطاء

من الأخيار، ولا حتّى منجاةً لأنفسهم تلقاءَ الشّرِّ العامِّ، وإنّما باختيارهم الحرِّ، وللانتقام من الآخرين، آخذين الآنَ أدوارهم نفسَها ورافعين السلاح نفسَه في وجوههم. الشرُّ عند هؤلاء الأشخاص أعمق بكثير، لأنَّه مولودٌ من خبرة الخير وأمتن بكثير لأنَّه متأصِّلٌ، شيءٌ لم تعتده قوّة النَّفس البشريَّة وعظمتها، قدَرٌ من أقدار البطولة.

XVII

كما هي أقبية السُّجون والسُّفن الحربيَّة غاصَّةٌ بأناسٍ هم، على حدِّ قولهم، بريئين، كذلك هو الحالُ في المكاتب العامَّة، إذ إنَّ كرامة الصَّنفين مهدورةٌ من قبل الجميع، إلاَّ من قبل الأشخاص المضطرِّين أو المجبرين رغماً عن إرادتهم، من المستحيل، تقريباً، الالتقاء بشخصٍ يؤكِّدُ بأنَّه حازَ أو استحقَّ الشّقاء الذي يعانيه، أو بأنَّه سعى، أو أقلّهُ، رغبَ في المجد الذي يعيشه: مع أنَّ هذا أقلُّ استحالةً من ذاك.

XVIII

ذات مـرَّةٍ، رأيـت في فيرِنتـسِه رجـلاً يجـرُّ، على طريقة حيوانات الجرِّ، كما لو أنَّه معتادٌ على ذلك، عربة مكـوَّمة بالبضائع، شاقّاً طريقه بغطرسةٍ كبيرة وهو يصيح في النَّاس ويأمرهم أن يفسحوا الطَّريق؛ أتت إلى مخيِّلتي صـور الكـثيرين الـذين يمـضون في طـريقهم وبالكادِ لا ينفجرون بالتِّيه والزهوِّ، مسبِّبين الإهانة للآخرين لدوافع ليـست مخـتلفة عـن تلك التي خلقت الغطرسة في نفسِ ذاك، أعني: جرُّ عربة.

XIX

ثمَّـة في العـالم بعـض الأشـخاص، المعـروفين بفشلهم في كلِّ علاقةٍ يقيمونها مع الآخرين، ليس بسبب عـدم تجربتهم في الحياة المجتمعيَّة، ولكن لطبيعةٍ فيهم لا يمكـن تغـييرها، تـراهم عاجـزين عـن تـرك انطـباعٍ بالبـساطة، مفتقـرين لتلك السِّمات، ولا أدري إن كانت مـزيَّفة أو مـصطنعة، الموجـودة لـدى الآخرين حتَّى بلا وعـيٍ لـذلك وتظهـر في سـلوك حتَّـى المغفَّلـين منهم، بحـيث لا يمكـن ممايزتها عن السِّمات الطبيعية فيهم إلاَّ

بـصعوبةٍ بالغـة، أولـئك كمـا أقـول، كـونهم مخـتلفين بوضـوحٍ عـن أقـرانهم لاعتـبار عجـزهم تلقـاء الأمـور الحياتيَّة، تراهم يحقِّرون ويعاملَون على نحوٍ سيىءٍ حتَّى مـن قِبَل الأدنى منهم، ولا يُصغي إليهم ولا يُطاعُ أمرهم عـندَ أحد، فالجميع يستعلون عليهم ويرمقونهم بفوقيَّة، وكـلٌّ مـن لـه شـأنٌ معهـم، يلجـأ عمـداً إلى إحـباطهم وإلحـاق الأذى بهـم في سـبيل مـصلحته، أكثـر ممَّا قد يفعـل مع غيرهم، لاعتقاده أنَّ الأمور معهم أكثر سهولةً ويمكـن أن تُـبلَغَ بلا عاقبة: فلهذا يُفقَدُ أمامَهم الصِّدق، وتُستعملُ القوَّة، ويُنقَضُ الصَّوابُ والاستحقاق.. في أيِّ منافـسة هم مغلوبون، حتَّى من الأقلِّ منهم كفاءةً، ليس فقـط في مـسألة الـذَّكاء أو مثلها من الصِّفات المتأصِّلة، ولكـن أيـضاً في صـفاتٍ يثمِّـنها البـشر ويعظِّمـونها، كالجَمـال والفـتوَّة والقـوَّة والـشَّجاعة وطبعاً الثروة، في الـنَّهاية، مهمـا يكـن شـأنهم في المجـتمع، لـن يكـون بمقـدورهم أن يحظـوا بـتلك الدَّرجـة مـن الاعتبار التي يحظـى بهـا العطَّـارون والحمَّـالـون، وهـذا، بمعنىً ما، منطقـيٌّ؛ فهـو ليس بعيبٍ أو بنقيصةٍ طبيعيَّةٍ عابرة العجزُ

عن نيل ما يستطيع الحمقى نيله بسهولة، هذا الفنُّ الذي هــو وحــده الكفــيل بجعل الكائن الإنسانيِّ يبدو إنساناً- أقــول، العجــزُ مهما كانَ الجهد، ولأنَّ هؤلاء، وبسبب أنَّ طبيعــتهم تــنزع إلى الخــير، عارفــون بالحياة وبالبشر أفــضل مــن كثيرين غيرهم، ولستُ مصدوماً بهذا، فهم كثيراً ما يكونون خيراً من ذاك الذي حُسِبَ مولوداً شرعيَّاً رغــم اســتحقاقه لــنقضِ الــصِّفة؛ وهــم ليــسوا جُرَّداً من معرفة الحياة بطيبة خاطرهم أو باختيارهم، لكن لأنَّ كلَّ رغبةٍ أو محاولةٍ لاكتسابها تعود عليهم بلا طائل. هكذا، لا يبقــى لــديهم خــيارٌ آخــر ســوى تكيــيف الــنَّفس مــع طبيعــتهم، وقــبل كــلِّ شــيء رفضُهم محو أو تبطينَ ذاكَ الوضوح وتلك الطَّبيعة: فما من تصرُّفٍ سوف يبدو أكثر حماقــةً وإثــارةً للــسُّخرية مــن تقلــيدهم التصرُّفَ المعتادَ للآخرين.

XX

لــو أنِّــي وُهــبت عبقــريَّةَ سرفانتس، لألَّفتُ كتاباً، مــثلما هــو خلَّــصَ بكــتابِهِ إسبانيا من الفرسان الهائمين، أخلِّــصُ أنا إيطاليا، بل العالم المتمدِّن، من نقيصةٍ هيَ،

مـع تقديـري لمرونة التقاليد القائمة أو أيّاً يكن المعنى، ليست بأقلّ قسوةً ولا بأقلّ بربـريّةً من أيّ أثرٍ باقٍ من وحشيّةِ العـصور الوسـطى المستحقّة لعقاب سرفانتس. أتحـدَّث عـن النقيصة المتمثِّلة في تلاوة وسرد المؤلِّفين لمـؤلَّفاتهم علـى الآخرين: ظاهرةٌ مغرقةٌ في القِدم، غير أنّهـا في القرون الخالية كانت بؤساً يمكن احتماله، لأنّها نـادرةٌ كانَـت. لكـن اليوم، والجميع يؤلِّفون، وبات من الـصعوبة بمكان أن تجدَ امرأً ليس بمؤلِّف، انقلبَ الأمرُ كارثـةً، وبـاءً اجتماعـيّاً، بلـوى جديـدة علـى الحـياة الإنـسانيَّة، ولـيس مـن قبيلِ الهـزل، بل في غاية الجدِّ القـول إنَّـه بالنسبة لهـذا الإنـسان صـار التَّعارفُ مريباً، والمصادقةُ خطِرة؛ وأنَّه ما من مكانٍ في هذا الزَّمن يمكن لإنـسانٍ بـريءٍ ألاَّ يخشى فيه من أن يُنقَضَّ عليه ويُعَذَّبَ بعقوبة التسمُّع إلى نثرٍ لا آخرَ له أو شعرٍ بآلاف الأبيات، ولـيس بعدَ اليوم بذريعة الرَّغبة بسماعِ رأيه، ذريعةٌ باتت مُستهلَكة وغايتها معروفة: إعادةُ الإلقاء؛ وبإيضاحٍ أكثر: إرضـاء غـرور المؤلِّـف المُستمَع لـه، طبعاً مع عبارات الإطـراء الـتي لا بدَّ منها في النِّهاية. بصدقٍ أقول، وهذا

هـو اعـتقادي، أنَّـه في أشياء قليلة جدّاً، تنكشف طِفليَّةُ الطَّبـيعة الإنـسانيَّة، وإلى أيِّ طـرفٍ مـن العماءِ، بل من الجهالـة، هـو الإنـسانُ منزوع من الحُبِّ؛ أمَّا من الجهة الأخـرى، فالنَّفسُ قادرةٌ على إيهامِ نفسِها، وذا هو حالُ من يعرُض نفسَهُ في حانوتِ الإلقاء الأدبيِّ.. هكذا، ترى الـواحدَ مـدركاً لمـا يـولِّده في نفسِه من غيظٍ لا يوصف التَّسمُّع إلى تـلاوات الآخرين، ورائياً بأمِّ عينيه الملامح الممـتقعة والذَّاهلة للأشخاص المدعوِّين للسَّماع، كيف يـتذرَّعون لـهُ بـأيِّ عـذرٍ للـرَّحيل، أو كـيف يهربون منه ويختبئون عنه ما أمكن، ورغم ذلك، بإرادةٍ من حديد، وبلجاجـةٍ لا مثـيل لهـا، مـثلِ دبٍّ يتـضوَّر جوعاً، تراه يـبحث عـن فريـسته ويلحـقُ بها في كلِّ أرجاء المدينة، وبغـتةً يـبلغُ بُلغـتَهُ حيـثما كانـت. مـتمادياً، بعد ذلك، بالتَّكـرار، ومتنبِّهاً، أوَّلاً للتثاؤب، ثمَّ للتَّمطِّي، فالتَّلوِّي ألمـاً، ولمئة علامةٍ أخرى من علامات التَّوتُّر القتَّال التي يقاسـيها المـستمع الـبائس، لا هو يتوقَّف ولا هو يعطيه فترة استراحة. بل على العكس، دائماً أكثر تزمُّتاً وعناداً، يواصـلُ خاطـباً وصارخاً لساعات، وتقريباً لأيَّام وليال،

حتَّى يُبَحَّ صوتُه، ما دامَ هوَ، وبعد وقتٍ طويلٍ من إنهاك المتسمِّع، لا زال يشعر بأنَّ قواه لم تنفد بعد، بما أنَّه لم يصل حدَّ التشبُّع. في غضون تلك المذبحة التي يقترفها الإنسان بحقِّ أخيه، يعيشُ هوَ من مكانه متعته الفردوسيَّة الفائقة: هيَ مذبحة، فلا ننسى أنَّ النَّاسَ يتركون بسبب ذلك كلَّ الصُّنوف الأخرى للمتعة، ينسون النَّوم والطَّعام، وتتلاشى من أعينهم الحياة والعالم. وهذه المتعة طبيعيَّةٌ في الإنسان، وهي تكمنُ في الاعتقاد الرَّاسخ بأنَّ لديه ما يثير الإعجاب وما يمنحُ المتعةَ للمستمع: وإلاَّ فهو يسردُ للخلاء، لا للبشر. الآن، كما قُلت، أيّاً تكن متعة السَّامع (قصداً أقول دائماً السَّامع، لا المصغي)، فكلٌّ واحدٍ يعرفُ عن خبرةٍ، والسَّاردُ كذلك، وأنا كذلك أعرفه، أنَّ كثيرين سوفَ يفضِّلون، على متعةٍ من جنسٍ هذه، أيَّ عقوبةٍ جسديَّةٍ قاسية. وحتَّى الكتابات الأروع جمالاً والأرفعُ قيمةً، ما أن تُسرَدَ من قبلِ كاتبها، حتَّى تصير من مستوى الكتابات التي تقتلُ تضجيراً. هذا ما كانَ ألمعَ إليه لغويٌّ من أصدقائي: أنَّه إذا كان صحيحاً أنَّ أوكتافيا، لدى استماعها لفيرجيل

يرتِّلُ الفصل السَّادس من الإنياده، قد أخذتها الغَشية، فمن المعقول أنَّ هذا ربَّما حصلَ لها، لا لذكرى ولدِها مارتشِلُّو، كما يقولون، بقدر ما هو لضجرِ التَّسمُّع.

هكذا هو الإنسان. وهذه النَّقيصة التي أتَّحدَّثُ عنها، أكانت بربريَّةً أو كانت سخيفةً، تبقى معاكسةً لمنطق المخلوق العاقل، وهي، بحقّ، وبالٌ على الجنس البشريِّ: لأنَّه ما من أمَّةٍ نبيلة، ما مِن ظرفٍ إنسانيٍّ، وما مِن عصرٍ من العصور، إلاَّ وكان هذا الوباء فاشياً.. إيطاليُّون، فرنسيُّون، إنجليز، ألمان، رجالٌ بيض، فائقو الحكمة في شؤونٍ أخرى، مفعمون عبقريَّةً وبطولة، رجالٌ حجَّةٌ في الحياة الاجتماعيَّة، رفيعو السُّلوك، يعرفون تمييز الحماقة ويهزؤون بها؛ جميعهم يتحوَّلون أطفالاً متوحِّشِّين لحظةَ سردِ أشيائهم. وكما هو نقيصةٌ في زمننا، هكذا كان الحال في زمن أرسطو، إذ لم يكن ليُطاق. وكذلك الأمرُ في زمن الشاعر اللاتيني مارسال، الذي عندما سئل من أحدهم لماذا لا يتلو عليه أبياته، أجاب: لكيلا أكره أبياتك. وعلى هذا أيضاً كان يبدو الأمرُ في أفضلِ فتْرات اليونان، فعندما، وكما

يُحكى، كانَ يحضر الفيلسوف السَّاخر ديوجينيوس في صحبةِ البعض، ويراهم يُحتَضَرون سأماً من تلك الدُّروس، ناظرين ببؤسٍ إلى الكتاب الذي بين يديه- كانَ في النِّهاية، يلوِّح لهم بالصفحات الفارغة، قائلاً: تمالكوا أنفسكم أيُّها الأصدقاء، لقد كنتُ أقرأ الأرض.

أمَّا اليوم، فكلُّ هذا الكَمِّ من المستمعين، بمن فيهم المُكرَهون على السَّماع، بالكاد يسدُّ رمقَ المؤلِّفين. على هذا، فإنَّ بعض معارفي، وهم رجالٌ بعيدو الرؤية، من المسلِّمينَ بأنَّ سردَ المؤلَّفات لطالما مثَّل حاجةً للطَّبيعة الإنسانية، قد بدأوا يفكِّرون من هذا المُنطَلَق، ولأجل المستقبل، بإدارة مرافق خاصَّة، مثلما تُدار جميع الحاجات العامَّة. فبتأثير تفاقم هذه الظَّاهرة، سوف يفتتحون، في وقتٍ قصير، مدرسةً أو معهداً أو بالأحرى كلِّيَّةً للإصغاء[1]. حيثُ، وفي أيِّ ساعةٍ من النَّهار أو الليل، يمكن لهم أو لأشخاصٍ يوظَّفون لذلك، أن يصغوا إلى من يرغب بالقراءة لقاءَ ثمنٍ معيَّن:

---

(1) يستخدم ليوباردي هنا فعل الإصغاء بدل الاستماع، لأنَّه يعرض المسألة من وجهة نظر المخدوعين بالأمر، المترجم.

ما سوف يكون بالنسبة إلى النَّثر، قطعةً فضيَّةً[1] عن السَّاعة الأولى، قطعتين عن الثَّانية، أربع قطعٍ عن الثَّالثة، ثمان عن الرَّابعة، وهكذا دواليك وفق متتاليةٍ حسابيَّة. أمَّا الشِّعر فالضِّعف. وتلقاء كلِّ مقطعٍ مقروء، إذا أحبَّ المُلقي إعادة قراءته، كما يحدث دوماً، فيُتقاضى ليرةٌ عن كلِّ بيت. وفي حالِ غطَّ المُصغي بالنَّوم، يُعفى القارئُ من الدُّفعةِ الثَّالثة للمبلغ المفروض. وفيما لو حصَلَ ووقعَ أيٌّ من حالات التشنُّج أو البُحَّة أو سواها من الحوادث الصَّغيرة أو الكبيرة، التي من غير المستبعَد أن تقعَ للطَّرفِ الأوَّل أو الثَّاني خلال الإلقاء، فإنَّ المكان سيكون مزوَّداً بالأدوية والعقاقير التي توزَّع مجَّاناً. هكذا، ما أن يُحوَّلَ مادَّةً للرِّبح شيءٌ ما زال إلى اليوم غيرَ مُستثمَرٍ، أعني الأذُن، حتَّى يُشرَعَ بابٌ جديدٌ على الصِّناعة، ليزداد في المحصِّلة الثَّراء العامُّ.

(1) عملة استُخدمت في إيطاليا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان يُطلق عليها «سكودو» وتعادل خمس ليرات، المترجم.

XXI

الكـلامُ، لا يمـنحُ مـتعةً قويَّةً ومديدة الأثر، ما لم يكـن مـتاحاً لـنا التَّحدُّث عن أنفسنا، وعن الأشياء التي تعنيـنا، أو تتعلَّق بنا بحالٍ من الأحوال، أيُّ حديثٍ غير ذلـك يصير محضَ مسأمةٍ في لحظاتٍ قليلة؛ وهذا الذي هو ممتعٌ لنا، هو ثقيلٌ حدَّ الهلاك لمن يُصغي، لكن، لا تُشترَى محادثةٌ مُحبَّبَة، بغيرِ ثمن المعاناة: أي أنَّه لا يُقالُ عنها مُحبَّبَةً إلاَّ عندما تُشبَعُ رغبة الحديث لدى المتحدِّث على حساب إسـآم المتسمِّع، فترى هذا يُصغي كثيراً ويـصمتُ كثيراً، وهو الأمر الأشدُّ سآمةً، وقد لا يكون في حيلـته غـير أن يدعَ للمتحدِّثين أن يتحدَّثوا عنه وعن خصوصيَّاته حين يرغبون، بل وأن يدخلوا أحياناً في محاكماتٍ حول مصائر أشيائه، وقد يشاركُ هو نفسُه في الحـديث عن ذلك، إلى أن يُزمعوا الافتراقَ، أولئك في بالغ السُّرور منهُ، وهو في بالغ السَّأم منهم، ذاكَ أنَّه، إذا كـان الـرَّفيق الأفضل هو ذلك الذي يتركنا أكثر رضاً مع ذاتـنا، فهذا يعني أنَّ هذا الرَّفيق هو أقرب إلى ذاك الذي نتـركه نحـنُ أكثـر سـأماً. الحصيلة هي أنَّه في الحديث، وفي أيِّ لقاءٍ لا تكون الغاية فيه تبادل الحوار، يكون من

غـير الممكـن تجـنُّبُ حـصول المتعة لدى طرفٍ والسَّأم لدى الطَّرف الآخر، ولا يمكن حتَّى الأمل بعكس ذلك. ولهـوَ حـظٌّ طـيِّبٌ أن يُـتاح للمرء أن يأخذ قليلاً من هذا وقليلاً من ذاك، بتعادلٍ.

XXII

لَيـبدو لي في غايـة الـصُّعوبة أن أقرِّرَ هل هو أكثر تـضاداًّ مـع القـواعد الأولى للعـادات تحـدُّثُ المرء عن نفـسه طـويلاً وبحكم الاعتياد، أم أنَّه أكثر ندرةً الإنسان المُعفَى من هذه النَّقيصة.

XXIII

ذاك الـذي يُقـالُ بـشكلٍ شائعٍ، بأنَّ الحياة محضُ عـرضٍ مشهديٍّ، هو قولٌ صادقٌ، وأصدقُ ما يكون في هـذا: أنَّ العـالم يـتكلَّمُ بلا انقطاعٍ على نحوٍ، ويفعلُ بلا انقطـاعٍ على نحوٍ آخَر، في هذه الملهاة الهزليَّة، الجميع الـيومَ يـسردون، الجميعُ يتحدَّثُون، وما مِن متفرِّجٍ على الجهـة المقابلة، وهذا العبث اللغويُّ للعالم لا يضلِّلُ لا الطِّفـلَ ولا الأبلـه، ذلـك أنَّ هـذه المـشهديَّة باتت شيئاً

عـديم القيمة، سأمٌ وعناءٌ لا دافع من ورائه ولا غايةَ من أمامِـه، هـو، إذن، مـستحقٌّ للمجازفـة، بالنـسبة إلى عـصرنا، أن نجعـلَ الحياة في النِّهاية واقعاً حقيقيّاً وليس مـصطنعاً، وأن نقـوم، لأوَّل مـرَّةٍ، بمجانـسة التَّـضادِّ المـشهور للعالم بين الأقوال والأفعال، وإذا سلَّمنا، عن خبرةٍ يجـب أن تكـون الآن كافية، بأنَّ الأفعال لا يمكن تحويـرها أو تـبديلها، لاسيَّما وأنا مقتنعٌ بأنَّ الإنسان قد توقَّـفَ عـن مغامرتِه في البحث عن المستحيل، يبقى أن نتَّفق على نقطةٍ وحيدةٍ وفي منتهى البساطة، ونحن حتى الـيوم لم نحـاول فعلـها، هـا هـي ذي: تبديل الأقوال، ولِمَرَّةٍ، تسميةُ الأشياء بمسميَّاتها.

XXIV

أو أنَّـني مُـضلَّلٌ، أو أنَّـه حقَّـاً نـادرٌ في زمننا ذاك الـشَّخصُ المَمـدوح مـن الجمـيع دون أن تكـون تلـك المدائح قد خرجت أوَّلَ ما خرجَتْ من فمهِ هوَ.. جَمٌّ هو حـبُّ الـذَّات، وجمَّةٌ هي الكراهيةُ والحسد التي يحملها الـنَّاسُ بعـضُهم لـبعض، فلأجـل صُنعِ اسمٍ، لا يكتفي

الـواحدُ بفعـل مـا يـستحقُّ الإطـراء، وإنَّمـا يجب عليه إطـراؤه، أو إيجـادُ وهـذا لا يغيِّـرُ شـيئاً مَـن يقوم مقامَه فـيعلنُ عـن الأمـر ويعظِّمهُ بلا كلل، صادحاً بهِ في آذان الـنَّاس، لحَملِهم، سواءً بإشهادهم الدَّليل، أو بالإصرار والتَّـرهيب، علـى تردادِ جزءٍ من ذلك الإطراء، تلقائيَّاً، لا تعـتقد بأنَّهم ينبسون بكلمةٍ من قبيل هذا لأجل القيمة العظـيمة الـتي تمـثِّلها، أو لأجـلِ روعـةِ الأعمـال الـتي تـصنعها. فلـو تُركَ الخيارُ لهم لنظروا وصمتوا، ولو كان بمقـدورهم، لحجـبوها عـن رؤيـة الآخـرين.. من يريدُ الرِّفعة، عليه بالضِّعة. غيرَ أنَّ العالَمَ قُبالةَ الضِّعة هو أشبه مـا يكـون بالمرأة: مع الخجلِ ومع التحفُّظ لا بادرةَ تأتي منه.

XXV

لا أحـد مـنَّا غير مُخدوعٍ كُلِّيَّاً بالعالَم، ولا هو في الـوقت نفـسِه سـابرٌ لأغوارِه، لا نحملُ عليه كثيراً إذا ما فقدَ فطرته الخيِّرة في جزءٍ منه، ما دمنا نشعر أنَّه لا زال، في جزءٍ آخرَ، مُسالماً؛ العالَمُ مثلِ شخصٍ لا نعرفُ بأنَّه سـيىءٌ، ولأنَّه يحيِّينا في كلِّ مرَّةٍ بدماثة، لا يبدو لنا أقلَّ

أو أكثر سوءاً. هيَ فقط ملاحظاتٌ لأجل التبصُّر في ضعف الإنسان، لا لأجل تبرئة الشَّرِّ ولا العالَم.

XXVI

عديمُ الخبرةِ بالحياة، وكذلك الخبيرُ في غالب الأحيان، عندَ اللحظات الأولى من تورُّطه في حادثٍ ما، وخصوصاً حين لا يكون له ذنبٌ في وقوعه، إذا ما هوَ عنَّت له صورُ الأهل والأصدقاء، فلا يتوقَّع منهم غيرَ التَّأسية والشَّفَقة، وغيرَ إغراقه، وهذا لأجلِ التَّغميض على المساعدة، بحُبٍّ ونظراتٍ أكثر من المُعتاد؛ بل من غير المستبعد عن الوقوع في الذِّهن، وقد وجدَ الشَّقيُّ نفسَه، بسبب ما حلَّ به، مذلولاً في المُجتمع حائلاً في عيون العالم أشبهَ بمقترفٍ لجريمة ومصدرَ عارٍ للأصدقاء، أن يرى أصدقاءه ومعارفَه يهربون من كلِّ ناحية، وأبعد من ذلك، محبورين هازئينَ.. بنحوٍ مشابهٍ، إذا ما أصابه ازدهارٌ ووفرة، فأوَّلُ ما يخطر بذهنه من أفكار، هو أن يتقاسم هذه النِّعمةَ مع الأصدقاء، الأمر الذي غالباً ما يعود بحبورٍ كبيرٍ عليهم كما عليه؛ لا يخطر بباله أنَّه ما أن يعلن عليهم الخبر، حتَّى تتلوَّى

وجوههم وتغيم، ويأخذ بهم الذُّهول كلَّ مأخذ؛ كثيرون سـيجهدون، أصـلاً، ألاَّ يـصدِّقوا، ثمَّ سـيعمدون إلى التَّقلـيل في نظرِه، وفي نظرِهِم ونظَرِ الآخرين، من شأن الـنِّعمة الجديـدة. وطـبعاً، بـسبب هـذا تفتـر بعـضُ الـصَّداقات، وبعضها الآخر ينقلبُ كراهيةً. في النِّهاية لا يوفِّـرُ الـواحد جهـداً أو عمـلاً لتجريد الآخَر من نعمته. هكـذا هـي التَّخـيُّلات الـتي تعرضُ لذهن الإنسان، أمَّا العقلُ نفسُه، فهو طبعاً بعيدٌ ومختلفٌ عن واقع الحياة.

XXVII

لـيس ثمَّـة علامـةٌ أعظـم علـى كـون امـرئٍ قليل الفلـسفة والحكمة، مِن أنَّه يريد للحياة بأسرِها أن تكون مفلسفةً وحكيمة.

XXVIII

الجنس البشريُّ، ووحدَه من بين جميع الأجناس، هـو في كـلِّ جزءٍ منه مقسومٌ إلى جزأين: الأوَّل يستخدمُ القـوَّة، والآخَـرُ يقاسـيها، لا شِرعةٌ ولا سُلطة، لا تقدُّمٌ فلـسفيٌّ ولا تمـدُّنٌ يمكـن أن يمنعوا أنَّ إنساناً مولوداً أو

على وشـك الـولادة لـن يكـون إمَّا من أولئكَ وإمَّا من هـؤلاء. يبقى أنَّ من بيده الخِيار، يختار، صحيحٌ، ليس ذلك في وسع الجميع، وليس دائماً.

XXIX

مـا مـن حِـرفةٍ عقيمةٍ مثلِ حِرفةِ الحَرف، غير أنَّها جـدُّ عالـيةٌ قيمة الزَّيف في هذا العالم، والتي معها يصيرُ للحَـرفِ شـأنٌ. الـزَّيف، لِـنقُل، هــو روحُ الحــياة المجتمعيَّة، وفنٌّ، مِن دونه بحقّ لا فنَّ ولا إمكانيَّة، هذا أنَّـه، وبالنَّظـرِ إلى وقعه في نفْسِ الإنسان، كاملٌ، إذا ما أنـتَ بحـثتَ في مـسألة الحظِّ عند شخصَين أحدهما ذو شـأنٍ حقيقيٍّ في كلِّ المجالات، الآخرُ ذو شأنٍ زائفٍ، فـستجدُ هـذا أوفـر حظّـاً مـن ذاك، بل ستجدهُ في أكثر المرَّات هو المحظوظ، وذاك المُعدمُ الحظِّ. الزَّيف قويٌّ ولـه وَقعٌ حتَّى في غياب الحقيقة، لكنَّ الحقيقة في غيابه لا حـولَ لهـا ولا قوَّة. هذا ليس ناشئاً، كما أعتقد، عن الانحـدار الـسيِّءِ لجنسنا، لكن، بما أنَّ الحقيقة لطالما كانـت هـي دومـاً الـضَّعيفة والنَّاقـصة، كـان لا مـناصَ للإنـسان، لكـي يهـزَّها أو لكـي يجمِّلـها، مِن شيءٍ مِنَ الإيهامِ وشيءٍ من التَّلاعب، ليستنطقها أكثر وأحسنَ ممَّا

تـستطيعُ قـولَه. الطَّبـيعة نفـسُها محـضُ زيـفٍ في عـينِ الإنـسان، ذاكَ أنَّهـا لا تجعـلُ الحـياة جديـرةً بالحبِّ أو مُحتمَلَة ما لَم تُزاوَجَ بالوهمِ والخيالات.

XXX

مـثلما هـو دأب الإنـسان، يـدينُ دائمـاً الحاضر، ويتغنَّـى بالماضـي، هكـذا هـم أكثـرُ المسافرين، خلال سفرهم يعشقون حياة الوطن، ويفضِّلونها، مع شيءٍ من التَّـزمُّت، ثمَّ مـا أن يعودوا إلى موطنهم، تراهم، وبذاك التَّـزمُّت نفـسه، يـضعونه وراء جمـيع تلك الأمكنة التي سافروا إليها.

XXXI

في كـلِّ بلدٍ، يُشار إلى النَّقائص والسيئات الكونيَّة للإنـسان وللمجـتمع الإنـسانيِّ علـى أنَّهـا خاصَّـةٌ بهـذا المكـان، أنـا لم أحـضر مـرَّةً في جزءٍ من العالم دون أن أسمـع: هـنا النِّساء فارغاتٌ ومتقلِّبات، قليلاً ما يقرأن، وغـير مـثقَّفات. هـنا الـنَّاسُ يحـبُّون التَّطفُّلَ على شؤون

الغـير، كـثيرو الثَّرثـرة والافتراء على بعضهم. هنا المالُ والـدَّعم ويُـسر العـيش في متـناول الجمـيع. هـنا يسود الحسد والصَّداقةُ قليلةُ الصِّدق، وهكذا دواليك. كما لو أنَّ الأشـياء في مكـانٍ آخـر تـسيرُ علـى نحـوٍ مخـتلف. الإنسانُ بائسٌ بالضَّرورة، وثابت العزم على الاعتقاد بأنَّه بائسٌ بالمُصادَفة.

XXXII

بمجـرَّد تحصيله المعرفة العمليَّة للحياة قبل غيرِه، لا يلـبث الرَّجُلُ أن يفقدَ في كلِّ يومٍ شيئاً من ذلك العزم الـذي يتَّـسم به الشُّبَّان، عزمٌ يحملهم، وهم يبحثون عن مهـنة، وينتظـرون العـثور علـيها، يقيـسون كـلَّ الأشياء أمـامهم بمقـياسِ الفِكـرة المطـبوعة في نفوسـهم، على التَّـزمُّت تلقـاء الغفـران للـنَّقص، وعلـى التَّـشدُّدِ تلقـاءَ التَّـنازُل لجهـة الإقـرار بفقدانِ أو غيابِ الكمال، ولجهةِ التَّوسُّـل الذي قليلاً ما يُضطرُّون إليه إذا أصبحوا رجالاً. وبعدُ، كانَ ورأوا كيفَ أنَّ كلَّ شيءٍ ناقصٌ، وسلَّموا بأنَّ لا شـيء في العـالم أفـضل مـن ذلك الخير القليل الذي لطالما حقَّروه، وكانَ وأدركوا أنَّه شبه مفقودٍ ذاكَ الشيء

أو ذاكَ المرءُ الجديرَين حقّاً بالتَّقدير، شيئاً فشيئاً، يتبدَّل القياس، ويتبدَّلون هُم ليحيلوا كلَّ ما يعرضُ لهم إلى الحقيقيِّ وليس، بعد الآن، إلى الكامل، فيأخذون على التَّسامح طواعيةً، وعلى تقدير كلِّ نعمةٍ مهما صغُرت، كلِّ ظلِّ نعمة، كلِّ إمكانيَّةٍ ضئيلةٍ يعثرون عليها. وفي النِّهاية يبدو لهم جديراً بالإطراء كثيرٌ من الأشياء وكثيرٌ من الأشخاص الذين بدوا، للوهلة الأولى، غيرَ مُحتمَلين. بيدَ أنَّ الأمر يذهب أبعد من ذلك، فبعدما كانوا في البدء مجرَّدين من نزعة الشُّعور بالتَّقدير، لم يلبثوا وأصبحوا مع مرور الوقت عاجزين عن الازدراء، وهذا يحدثُ بالأخصِّ عندما يكونون وافري الذَّكاء. لأنَّه، في الحقيقة، أن يكون المرءُ أكثر استخفافاً وأكثر تجهُّماً، فتلك الإشارة الأولى لرحيل الشَّباب، وهي ليست إشارةً حسنة: وهؤلاء يرتابون، إمَّا لقلَّةِ فهمٍ، وإمَّا طبعاً لقلَّة تجربة، بأنَّهم لم يمتلكوا معرفةَ الحياة، أو بالأحرى بأنَّهم من صنف أولئك الحمقى الذين يستخفُّون بالآخرين الذين لديهم تقديرٌ كبيرٌ لأنفسهم: قد يبدو هذا، في النِّهاية قليل الاحتمال، لكنَّه صحيحٌ.

حقّاً، لا يمكن أن يعني شيئاً غيرَ الانحدار السَّحيق لأحوال الإنسان. القول: إنَّ الطَّبعَ السَّائد للعالم ينزع أكثر نحو التَّعظيم منه نحو التَّصغير.

XXXIII

المُخادعون من الدَّرجة الثَّانية، وعموماً النِّساء، يعتقدون دائماً أنَّ أضاليلهم قد فعلتْ فِعلَها، وأنَّ النَّاس قد تُركوا مأخوذين بها، الأكثر دهاءً يشكُّون في ذلك، لأنَّهم يعرفون أفضل منهم صعوبةَ الفنِّ من جهة، وأشكال تأثيره من جهةٍ أخرى، لاسيَّما وأنَّ الشيء نفسه الذي يرغب فيه هؤلاء، ألا وهو الخِداع، مرغوبٌ من الجميع. هذان السَّببان الأخيران يكشفان كيف أنَّه غالباً ما يخرجُ المُضلِّلُ مُضلَّلاً. زد على ذلك أنَّ هؤلاء لا ينظرون إلى الآخرين على أنَّهم قليلو التَّبصُّر، كما يتخيَّل عادةً من يتبصَّرُ قليلاً.

XXXIV

كثيراً ما يظنُّ اليافعون أنَّهم يكونون أكثر جاذبيَّةً عندما يظهرون بمظهرِ الكآبة، لهذا ربَّما، عندما لا تكون

الكآبـة أكثـر مـن محـض مظهَـرٍ، يمكـن لهـا أن تكـون محـبوبةً، لكـن لأمـد قـصيرٍ، وغالباً من النِّساء، أمَّا أن تكـون الكآبـةُ جوهـريَّةً، فكـلُّ الجـنس البـشريِّ سوف ينبذها. هكذا، على الأمد الطَّويل، لا يُحَبُّ ولا يَجدُ لهُ مكانـاً في اعتبار الإنسان غيرُ السَّعادة: ذلك لأنَّ العالَمَ، - وهـو معه الحقُّ في هذا- لا يحبُّ أن يبكي، ولكن أن يضحك.

XXXV

في بعـض الأمكنة حيثُ يتشابكُ التَّمدُّنُ بالبربريَّة، كمـا علـى سبيل المثال، نابُولي، تمكن ملاحظة - أكثر ممَّـا في أيِّ مكـانٍ آخَـرَ - أمـر يمكـن بطريقةٍ أو بأخرى تأكـيد حـضوره في كـلِّ الأمكـنة: أنَّ الإنسان بمجرَّدِ أن يُشارَ إليه على أنَّه بلا ثروة، بَطُلَ إنساناً في نظرِ الآخرين. وبمجـرَّدِ أن كـان ثريَّاً، فهو في خطَرٍ مُحدِقٍ بحياته. من هنا، حيثُ ولَّدت هكذا أمكنة هكذا ضرورة، وكما صار يُمـارَسُ في الواقـع- نـشأت فكـرةُ تمويه الوضع الماديِّ للإنـسان، وحفِّـهِ بالغمـوض. وهكذا لا يعرفُ الآخرون إذا مـا كـان علـيهم ازدراءَك أم قـتلَك. لكنَّكَ في النِّهاية

لست بمختلفٍ عمّا هو عليه الإنسان عادةً، نصفُ مُعتَبَرٍ ونصفُ مُزدَرَىً، تارةً يجبُ سحقُه وتارةً يُخلى سبيلُه.

XXXVI

كثيرون يتصرَّفون معكَ برعونة، تدركُ من ناحيةٍ، وأنت تقاسي آلام كراهيَّتهم، أنَّك لا تضعُ حدّاً لرعونتهم؛ من النَّاحية الأخرى، أنت تجهل في الحقيقة أنَّهم رُعنٌ.

XXXVII

ما مِن نزعةٍ في الإنسان أكثر تعصُّباً في الحياة العاديَّة، ولا أقلَّ تعصُّباً، من التَّعصُّب نفسِه.

XXXVIII

كما هو فنُّ المُسايفة عبثيٌّ عندما يتسايفُ اثنان يتمتَّعان بالقدرِ نفسه من البراعة حيثُ يبدو الأمر في النِّهاية، وهُما لا يفوق واحدهما الآخَر في شيء، كما لو أنَّ كليهما مبتدئان، هكذا يقعُ في الغالب أن يبدو الإنسانُ زائفاً وسيئاً على نحوٍ مجّانيٍّ، لأنَّه حينما يلتقي

الـشَّرُّ مـع الادِّعـاء بالطَّـريقة نفسها، يعودُ الأمرُ بالنَّتيجة نفـسها الـتي كـان ليعود بها فيما لو كان أحد الطَّرفين أو كلاهمـا طـيِّبٌ وصادق. لا شكَّ، عندما ينتقم الإنسان، في أنَّ الـشَّرَّ والادِّعـاء ليسا بمُجـديَين مـا لم يكـونا إمَّا معـضودَين بالقـوَّة، وإمَّـا في مـواجهة شـرٍّ أو مكـرٍ صُـغرَيَين، أو بالأحـرى في مـواجهة الخـير، الاحـتمال الأخـير نادرُ الحدوث، والثَّاني ليس شائعاً، لأنَّ الجنس البـشريَّ، جُلَّـهُ شـرِّيرٌ بقـدْرٍ واحد، بعضَهُ أكثرُ من هذا القـدْرِ أو أقـل، وطـبعاً لا يمكن إحصاء كم مرَّةٍ بمقدور هـؤلاء أنفـسهم، عـبرَ عمـلِ الخـير بعضهم لبعض، أن يـنالوا بـسهولةٍ ذاكَ الـشيءَ نفـسَه الـذي ينالونه بصعوبةٍ جمَّـة، أو لا يـنالونه، عـبرَ عملِ أو بالأحرى العزمِ على عملِ الشَّرِّ.

XXXIX

يفسِّرُ بالداسَّار كاستيليونِه في كتابِه «*المُستشار*»[1]، وبـشكلٍ في غايـة الإقناع، الدَّافع وراء نزعةِ الشيوخ إلى

---

(1) كـتبَ بالداسَّـار هـذا العمـل بإلهـامٍ مـن عمله كمستشار في بلاط الدوقة إليزابتَّا غونتزاغا ويقع في أربعة أجزاء، المترجم.

مدحِ الزَّمن الذي كانوا فيه شباباً، وهجاءِ الحاضر. يقول: «السَّببُ وراء تلك الأفكار الخاطئة عند الشيوخ، وهذا بحسب تقديري الخاصّ، أنَّه والسِّنين تهربُ منَّا تراها تأخذُ معها الكثير من أسباب الرِّضا، وفوق هذا فهي تقتلعُ من دمائنا جُلَّ جوهرِ النَّفس، لأنَّ الجسد يتبدَّل، وتضعفُ الأعضاء التي من أجلها تعملُ قوَّةُ النَّفْس. وهكذا تكون قلوبنا في ذلك الوقت، كما ورق الشَّجر في الخريف، تغادرها زُهَيراتُ الفرحِ النَّاعمة، ومكانَ الأفكار الجليَّةِ والصَّافية تدخُلُ سماءٌ غائمة ويسيلُ حزنٌ مصحوبٌ بآلاف المآسي: بنحوٍ لا يكون معه الجسدُ فقط هو السَّقيم، بل النَّفسُ أيضاً، ذاكَ أنَّه لا شيء يبقى من متعِ الأيَّامِ الخالية غيرُ ذكرىً شديدة التَّشبُّث وصورة لتلك الأيَّام الغالية للزَّمن الرَّغيد، التي حين نستعيدها يُخيَّلُ لنا بأنَّ السَّماء والأرض وكلُّ شيءٍ في احتفالٍ لا ينتهي وتُطبِق تلك الصُّورة على أعيننا أنَّى نظرنا، وفي رأسنا، كأنما في حديقةٍ مُشتهاة وغامضة، يُزهر ربيع السَّعادة الرَّائع. لهذا، ربَّما من الأجدى لنا، عندما تبدأ شمسُ الحياة بالميل جهةَ الموسم البارد، أن

نفـارق تلك المتَع، وننطلق جهةَ المغيب، تاركين وراءَنا مـع هاتـيكَ المُـتَعِ ذكـراها أيـضاً، ونبتكـرَ، كمـا يقولُ تِميـستوكليس[1]، الفنَّ الذي يعلِّمنا النِّسيان؛ لأن مدارك الجـسد مـضلِّلَةٌ جـسداً، وكـثيراً حتّـى مـا تخـدَعُ حُكمَ العقـلِ. كمـثلِ هـذا، يـبدو لي الـشُّيوخُ، وحـالهم حالُ أولـئكَ الذين يوشكون على مغادرة الميناء، بأنَّهم يثبِّتون عـيونهم علـى اليابـسة، ويـبدو لهـم بـأنَّ السَّفينة راسية والشَّاطئُ يغادر؛ هكذا هي الصورة معكوسةٌ عندهم، أنْ يبقى الميناءُ، ومعه في الوقتِ نفسه الزَّمنُ والمتَع، مقيماً في مملكتهم، فيما نحنُ نبتعدُ في سفينة الفناء، مغادرينَ واحـدنا بإثـر الآخَـر عـبرَ ذاك البحر الهائج الذي يمتصُّ ويبـتلعُ كـلَّ شـيء. الأرضُ ليـست مُجازةً لنا بعد الآن، وفـوق ذلـك، نحـن مضروبون بكلِّ ريحٍ معاكسة، وفي الـنِّهاية، عـند شُـعبةٍ صـخريَّةٍ مـا تتحطَّم بنا السَّفينة. لا يمكن للنَّفس الهرمة الواهنة، وقد أمست شيئاً لا يتناسبُ مع كثيرٍ من أشكال المتعة، أن تحتفظ بالذَّائقة، وكما أنَّ المصابين بالحمَّى الذين تفسدُ حاسَّة التَّذوُّق لديهم جرَّاء

---

(1) أحد قادة أثينا الكِبار (524-459 قبل الميلاد)، المترجم.

أنفاسـهم الفاسـدة، يلـوحُ لهم أنَّ كلَّ صنوف النَّبيذ هي شـديدة المـرارة، مـع أنَّها لذيذةٌ وحُلوة، كذلك بالنسبة للـشُّيوخ، فبسبب الوهن، والذي هو في طبيعة الحال لا يجـرِّدهم مـن الـرَّغبة، تـبدو المُـتَعُ عديمةَ الطَّعم باردة وشـديدة الاخـتلاف عـن تلك التي سبقَ واختبروها كما يتذكَّـرون، مـع أنَّهـم في سريرتهم يعرفون أنَّ المتعةهيَ نفـسُها. لكـن، لشعورهم بالعجز أمام المتعة، يتألَّمون، ويذمُّون الحاضرَ، غيرَ مُبصرين أنَّ هذا التَّحوُّلَ آتٍ منهم ولـيس مـن الزَّمن المتقدِّم، وبعكس ذلك، ما أن تجيء في الذَّاكـرة ظلال المتع الغابرة، حاملةً معها أيضاً ظلال زمـنٍ ولَّـى، حتَّـى يغدقوه بالمديح لأنَّ ذكراه كما يلوح لهم تحملُ معها عطراً كان يعبِق بهم حين كان فيما مضى زمـناً حاضـراً. هـذا أنَّ الـنَّفْسَ البشريَّة تكرهُ كلَّ الأشياء الـتي تـأتي مـصحوبةً بمـا يحزنها، وتحبُّ كلَّ تلك التي تأتي مصحوبةً بما يفرحها».

هكـذا إذن، يعـرضُ كاسـتيليونِه، وبكلماتٍ ليس جمالُهـا بأقلِّ من ثرائها، كما هو دأبُ النثريين الطِّليان، فكـرةً جـدُّ صـحيحة. أزيـدُ تثبيتاً لها فأقول: إنَّ الشُّيوخَ

يرمون بالحاضرِ وراءَ الماضي، ليس فقط بالنسبة للأمور التي تخضعُ للإنسان، بل أيضاً بالنسبة لتلك التي لا إرادة لهم فيها حاملين عليها أنَّها هي الأخرى سيِّئة، دون الاعتراف بالحقيقة، أنَّها قد ساءت في نفوسِهم ولجهةِ نفوسِهم، ولم تسؤ في ذاتِها. أنا واثقٌ من أنَّ كلَّ واحدٍ يتذكَّر أنَّه قد سمع الشيوخ حوله أكثر من مرَّة، كما أتذكَّر أنا عمَّن حولي، يقولون إنَّ المواسم صارت أبرد من ذي قبل، والشتاءاتِ كذلك أطول، وإنَّه على زمنهم، في أيَّام الفصح، كانَوا معتادين على ترك معاطف الشتاء والخروج بثياب الصَّيف، أمَّا بسبب هذا التَّغيُّر الحاصل، ففي رأيهم أنَّه اليوم، وبالكاد في مايو ومرَّاتٍ في يونيو يمكن التَّجرُّؤ على فعل ذلك. ومنذ سنواتٍ ليست ببعيدة بُحثت بجديَّة من قِبَلِ بعض الفيزيائيين الأسباب وراء ظاهرةِ برود الفصول هذه، فعزاها البعضُ إلى إزالة الأحراج الجبليَّة، والبعضُ الآخَر لا أدري إلى ماذا، لأجل تفسيرِ شيءٍ لا واقعَ له: لأنَّ الأمر هو في الحقيقة عكسُ ذلك، فقد خلُص أحدهم في دراسته لمختلف النَّصوص العائدة إلى

مـؤلِّفين قدماء إلى أنَّ إيطاليا في العصور الرُّومانية كانت أكثـر بـرودةً ممَّـا هـي اليوم. وهذا معقولٌ جدّاً، لاسيَّما وأنَّـه مـن ناحـيةٍ أخـرى قـد ثـبُتَ بالدِّراسة، ولأسبابٍ منطقـيَّة، أنَّ امـتداد الـتمدُّن البـشريِّ يجعل المُناخ، في تلـك الـبلاد الـتي استوطنت وعمِّرت من قبل الإنسان، أكثـر اعـتدالاً: وهو الواقع الحاصل فعلاً والمبرهَن عليه خـصوصاً في أمـريكا، حيثُ، كما نعلم، حلَّت حضارةٌ تامَّـة، مـن جهـةٍ مكـانَ شعبٍ بدائيٍّ، ومن جهةٍ أخرى علـى أرضٍ معـزولةٍ تمامـاً. بيدَ أنَّ الشُّيوخ، إذ يعتبرون الـبردَ في أيَّامهم هذه أشدَّ منه في أيَّام شبابهم، يعتقدون بـأنَّ هـذا التغيُّـرَ قـد طرأ على الأشياء من حولهم وليس علـيهم هُم، ويتوهَّمون بأنَّ الحرارة الآخذة بالنُّقصان في أجـسامهم إنَّمـا هي تنقصُ في الهواء أو في الأرض. هذا الوهم متأصِّلٌ، فالشَّيء نفسه الذي يصرُّ عليه الشُّيوخ في أيَّامـنا، كـان يـصرُّ علـيه الـشُّيوخ قـبل قرنٍ ونصفٍ من الـزَّمن، لكـيلا أقول أكثر، وتحديداً أولئك المعاصرون لماغالوتّـي[1] الذي كتبَ فيما كتبَه في رسائله المشهورة:

---

(1) لورنتـزو ماغالوتّـي (1637-1712م)، أديـب شـغل منـصب أمـين سـر

«صحيحٌ جداًّ أنَّ التَّراتب القديم للفصول آخذٌ في التَّبدُّل. هنا في إيطاليا، ثمَّة لغطٌ وحديثٌ عامٌّ بأنَّ فصول الاعتدال[1] ما عادت موجودة. وبسبب هذا الاختفاء للحدود، فمن الطَّبيعي أنَّ يغزوَ البردُ الحقول. لقد سمعتُ والدي يقول ذات مرَّة إنَّه في أيَّام شبابه في روما، وفي صباح فصح القيامة، كان الجميعُ يخرجون بثياب الصَّيف. اليوم، ما لم يكن المرء مضطرّاً للخروج بقميص خفيف، أقول لكم بأنَّه سيحرص على ألاَّ يخفِّف في لباسه ولا أصغر قطعة كان هوَ يرتديها في عزِّ الشِّتاء».

هذا ما كتبَه ماغالوتِّي سنة 1683. إيطاليا، إذاً، كانت لتكون أكثر برودةً من غرينلاند عمَّا هي عليه اليوم، طبعاً هذا لو، منذ تلك السنة إلى هذه، استمرَّت البرودة بالازدياد وفقاً لتلك النِّسبة التي حدَّثنا عنها. ولهو من المبالغ فيه القول إنَّ هذه البرودة المستمرة يمكن أن تُعزى إلى أسبابٍ تتعلَّق ببرود الكتلة الأرضيَّة،

"لآكَّادِميا دِل تشيمِنتو" التي أسسها طلاب غاليليو، المترجم.

(1) يقصد الرَّبيع والخريف، المترجم.

فلا أحد سوف يبدي اهتماماً بفرضيَّةٍ كهذه، لأنَّ الأمرَ، لبطئه، لن يكون محسوساً على مدى عشرات القرون، فكيفَ على مدى سنوات قليلة.

XL

لشدَّ ما هو مقيتٌ الحديثُ عن الذَّات. غير أنَّ الشَّبابَ، لما لهم من طبيعةٍ متَّقدة بالحياة، وروحٍ تربو على التَّوسُّط والاعتدال، قليلاً ما يتنبَّهون إلى هذه النَّقيصة: ويتحدَّثون عمَّا يخصُّهم ببراءةٍ مُفرِطة، وهم على ثقةٍ مُطلقة بأنَّ من يسمعهم ليس أقلَّ اكتراثاً بشؤونهم منهم أنفسهم. لذلك يُغفَرُ لهم، لا لعدم خبرتهم من وقعٍ ساحرٍ في النَّفس، ولكن لانكشاف حاجتهم إلى المؤازرة، إلى النُّصح وإلى مُتنفَّسٍ بَوْحيٍّ عن عواطفهم المشبوبة وهم في هذا العمر العاصف. إلى اليوم، ما زالَ معترفاً به، عموماً، أن يكون ثمَّةَ حقٌّ ما للشَّباب بالرَّغبة في عالمٍ مشغولٍ بأفكارهم.

XLI

في بعض الأحيان، شيءٌ طبيعيٌّ أن يبقى المرء مجروحاً من كلماتٍ قيلت في حقِّه وهو غائب، أو قيلتْ

بنـيَّةٍ مبّطنة على ألاَّ تبلغَ بشكلٍ أو بآخر مسمَعَه: لأنَّه إذا ما رغبَ في أن يستحضرَ بذاكرته، ويقلِّبَ جيِّداً حيثيَّات القـضيَّة، فلـن يـبقَ له، لا صديقٌ صَدوقٌ، ولا شخصٌ مخلـصٌ يعـوِّلُ عليه في ألاَّ يُلحقَ به هكذا أسىً بالغاً من جـرَّاءِ الـتفوُّه، بكامـلِ فمِه وتمام نيَّته، بكلماتٍ وأقاويل علـى هذا الصَّديق أو الشَّخص الغائب. من جهةٍ، يتَّضحُ لي كـم هـي تلـك المحـبَّةُ هكـذا هشَّةً ومراوغة، إذ من المـستحيل تقريباً أنَّ كلمةً قد تقالُ في حقِّنا خارجَ مرمى حـضورنا، وتُـنقَل إلينـا كمـا قـيلَتْ، ونـشعرُ بأنَّـنا لا نـستحقُّها أو نـستحقُّها قليلاً- من المستحيل، أقول: ألاَّ نـتأذَّى بهـا. مـن جهـةٍ أخرى، لا يمكنني التَّعبير كم هو سلوكنا مخالفٌ للقاعدة التي تقول بألاَّ نفعل بالآخرين ما لا نحـبُّ أن يفعلـوه بـنا، وكم من مرَّةٍ حُكمَ على حرِّيَّةِ التقوُّل على الآخرين بالبراءة.

XLII

شـعورٌ جديـدٌ ذاكَ الـذي يختـبره الإنسان في عمرٍ يربو قليلاً على الخامسة والعشرين، عندما، بغتةً، يصير ينظـرُ إلى نفسِه بأنَّه غدا أكثر خبرةً من كثيرٍ من أصحابه،

وعلى هذا يشعر، لاسيَّما وأنَّ ثمَّة في العالم عدداً هائلاً من اليافعين الذين هم أصغر منه، بأنَّه يحتلُّ بغير منازعٍ المكانة الأسمى من عمر الشَّباب، ومهما كان شعوره بأنَّه لا زال أدنى من الآخرين في كلِّ شيءٍ آخَر، غير أنَّ اعتقاده بأنَّ أحداً لم يعلوه على مَدرجَةِ الشَّباب لن يتزحزح، لأنَّ الشُّبَّان الذين هم أصغرُ بقليلٍ منه هم ليسوا سوى أكبر بقليلٍ من الأطفال، وأحياناً يبدو الأمر له وكأنَّ أصحابه ليسوا جزءاً من العالم. هكذا إذن، يشعر هذا، وبحسب تقديره الواهم، بأنَّ جوهر الشَّباب هو طبيعةٌ فيه وأصلٌ، إلى درجةٍ بالكاد يمكن له معها أن يتخيَّل أنَّ أحدهما يمكن فصله عن الآخَر، إلى أن، شيئاً فشيئاً، يستيقظ ليدركَ أنَّ الشَّباب ليس هبةً، إلاَّ لأمدٍ قصير؛ وعندها، يتحوَّلُ إلى مذكِّرٍ بهذه الحقيقة الثمينة، سواءً لنفسِه، أو للآخرين. بالتَّأكيد، لا يمكن الإشارة إلى امرئٍ، وقد تجاوزَ سنَّ الخامسة والعشرين وبدأت بذلك تويجاتُ الشَّباب بالتَّساقط، بأنَّه لم يختبر بعضَ محن الحياة، اللهمَّ سوى لو كانَ هذا المرء أحمقَ؛ ذاكَ أنَّه حتَّى لو بقيت أقدَارُ المرء مُزهرةً في كلِّ الأمور

الأخـرى، فمـا أن تنقضي هذه الفترة، حتَّى يشعر بوطءِ محـنة في نفسِه هي أشدُّ وأمَرُّ من سائر المِحَن، ولعلَّها أشـدُّ وأكثـر لـدى أولـئك الذين قليلاً ما امتُحنوا. أقصدُ انحدارَ أو أفول شمسِ الشَّباب.

XLIII

في هذا العالم، النَّاس الذين يُشار إليهم بالتُّقى هم أولـئك الـذين تـستطيعُ دون أن تـرجو مـنهم خيراً، ألاَّ تخافَ منهم شرّاً.

XLIV

لـو أنَّـك أجـريت اسـتفتاءً علـى النَّاس الخاضعين لـسلطة القـضاء، أو لأيَّـة سـلطة حكومية أخرى، حولَ تقيـيمهم لهـذه الـسُّلطات ولطـريقة أدائها، وتحديداً في المكاتب، ثمَّ قمتَ بمطابقةِ الإجابات بالحقائق، فلسوفَ تجـد تناقـضاً كـبيراً في الـتَّأويل. وإذا ما حصلَ واتَّفقت التَّأويلات، فإنَّ الأحكام لابدَّ وأن تتضادَّ، بلا نهايةٍ، مع بعـضها، حيث يـذمُّ أولـئكَ تلك الأشياء التي يمتدحها

هؤلاء. سوى اللهمَّ حولَ كفِّ الأيدي عن المال العامِّ أو لا، لـن تجـدَ اثـنين يتَّفقان على حقيقة الأمر إلاَّ ويتَّفقان سواءً في التَّأويل أو الحكم، لكي وبصوتٍ واحدٍ، يطروا علـى السـُّلطة لهـذا الاستتباب، أو يكيلوا عليها للسبب المعاكس، هكذا بكلِّ بساطة. ويبدو، بطبيعة الحال، أنَّ حُسن السـُّلطة أو رداءتهـا لا تُميـِّز ولا تُعيِّر بمعيارٍ غيرِ معـيار المـال. وعلـى هـذا، فسلطةٌ حسنة تساوي سلطةً متمنِّعة، وسلطةٌ رديئة تساوي سلطةً جشعة. وإنَّ الشَّعب قـادرٌ، بحـسب نـزعاته وأهـوائه، علـى تكييف الحياة، وتكيـيف الـصِّدق وكلِّ شأنٍ من شؤون المواطنة، وقادرٌ كـذلك على إيجاد العذر بل وحتَّى المديح للسُّلطة مهما تكـن أفعالهـا، لكن شريطة ألاَّ يُمسَّ المال، كأن النَّاسَ يتعـصَّبون في اخـتلافهم في كـلِّ الأشـياء الأخـرى ولا يتـسامحون إلاَّ في اتِّفـاقهم على تقديس العملة، أو كأن المـال في جوهـره هو الإنسان، ولا غير ذلك هو جوهر الإنـسان؛ حقـيقةٌ تعادلُ بحقٍّ ألف صيغةٍ صاغها الجنس البـشريُّ كمُـسلَّمات ثابـتة، بالأخصِّ في زمننا. مثلُ هذا الرَّأي كانَ ألمعَ إليه فيلسوفٌ فرنسيٌّ من القرن الماضي، إذ قـال: الـسِّياسون القـدماء كانـوا يـتَّحدَّثون دائمـاً عن

الأعـراف وسـبل الخير، هؤلاء المعاصرون لا يتحدَّثون سوى عن السُّوق والعملة. ولمن المعقول جدَّاً أن يضيف واحـدٌ مـن طـلاَّب الاقتصاد السِّياسي، أو من المبتدئين في دراسـة الفلـسفة: ذاكَ أنَّ الخـير والأعراف الجيِّدة لا يمكـنها أن تثبت على قدميها بغير أموال الصِّناعة؛ هذه الـتي، بإرضـائها للاحتـياجات اليومـيَّة وجعلـها العيشَ سهلاً وآمناً لجميع النَّاس، قد جعلت الخيرَ قويَّاً وراسخاً وثبَّـتت كـلَّ شـيءٍ آخَـر. جمـيلٌ جـدَّاً. لكـن فيِ الوقت نفـسه، سـويَّةً مـع الصِّناعة، فإنَّ انحدار الرُّوح والبُرود والأنانـيَّة والجـشع والـزَّيف والخـيانة وكـلَّ الـصِّفات والمشاعر التي تبدو أكثر انحداراً وأكثرَ تنافياً مع الإنسان المـتمدِّن، هـي ما زالت على عرش السُّلطة، ووجوهها تتبدَّل بلا نهاية. أمَّا الخير فينتظر.

XLV

لا علاجَ للغيبة، وتحديداً لآثارها المكربة في نفسِ المُغـتاب، أعظـم مـن الـوقت. إذا ما انهالَ العالمُ بنقده على طبعٍ من طبائعنا أو شأنٍ من شؤوننا، سيئاً كانَ النَّقد أم جيِّداً، فلا حاجةَ بنا سوى إلى التَّجاهل والمواصلة. إذ

مـا أن يمـرَّ وقـتٌ قـصير، حتَّى تصيرَ المادَّةُ مستهلَكةً، وينـبذها المـتقوِّلون أنفـسهم طلباً لأخرى أكثر جدَّةً. أمَّا عـندما نكـون أكثـر تحـدِّياً وثـباتاً في مواجهتـنا للأمـر، ونحقِّـرُ تلك الأصوات، فسرعانَ ما يتحوَّل ما كانَ ليبدو عـند الـوهلة الأولى مُـداناً أو غـريباً إلى شـيءٍ معقـولٍ وعاديٍّ: لأنَّ النَّاس عادةً، أولئك الذين يعتقدون بأنَّ من لا يستـسلم هـو المـذنب، يديـنون في الـنِّهاية أنفسهم، ويـبرِّؤوننا. يتجلَّـى من هذا شيءٌ، هو ملحوظٌ جداً، أنَّ الضُّعفاء يعيشون حسب نزعات العالم، والأقوياء حسب نزعاتهم.

XLVI

لـيس مـدعاةً للفخـر، ولا أدري إن كـنت أعـني للإنـسان أم للأخـلاق، أن نـرى في جمـيع اللغـات البـشريَّة، القديمة والحديثة، أنَّ اللفظة نفسها التي تحيلُ إلى معاني الخُلُق في لغة تحيلُ إلى معاني الحماقة في لغةٍ ثانـيـة، إنـسانٌ خلـوقٌ هنا يساوي إنساناً أحـمق هنـاك. ثمَّـةَ كثيـرٌ مـن الأمـثلـة علـى هذا، كما الكلمة التي تُلفـظ *dabbenaggine* في الإيطالية وتحيل إلى الإخلاص

أو الــورع المفـرط، تُلفَظ ذاتُهـا فـي الإغريقية ,ευηνης ευηνεια لكنَّها تعني هنا قليل النَّفع. تقديرٌ كبيرٌ للأخلاق أظهــرته المجــتمعات علــى مــرِّ العــصور؛ الأفكــار والعواطـف الحمـيمة تجاههـا قد قِيلت، حتَّى رغماً عن الأخـلاق نفـسِها أحـياناً، أي في تلاعــب الــصياغات اللغـويَّة. لطالمـا، إذن، كـانَ حكـم المجتمعات، برغم اسـتتاره الـدَّائم، وبـرغم التـناقض بين اللغة والسُّلوك، ولأنَّهـا تعرفُ جيِّداً أنَّ من في مقدوره أن يختار فسيختار أن يكـون خيِّـراً- أقـول، لطالمـا كـان حكمها: الحمقى طيِّبون لأنَّهم لا يملكون سوى أن يكونوا كذلك.

XLVII

الإنـسانُ مُـدانٌ، إمَّـا لأنَّه قضى الشَّبابَ عبثاً وبلا غايـة في عمرٍ هـو الوحـيد الـذي يمكِّنه من أن يزرع ما سـوف يجنـيه عـندما يـبلغه الكِبَـر، وإمَّـا لأنَّه قضاه في تحصيل الملذَّات وتوفيرها لأجل تلك السنوات المقبلة، عندما لا يعود قادراً على التلذُّذ.

XLVIII

تُـرى إلى أيَّـة درجـةٍ هو عظيمٌ الحبُّ الذي وهبتنا إيَّاه الطَّبيعة نحو أشباهنا؟ يمكنُ معرفة ذلك من كلِّ فعلٍ يقـوم بـه الحيوان. فالطِّفـل عـديم التَّجربة إذا ما حصل ووقع نظره على مرآةٍ ما، يعتريه غضبٌ واضطرابٌ عارم لأنَّـه يحـسبُ الـصورةَ مخلـوقاً مشابهاً له، فلا يوفِّرُ أيَّ سبلٍ ممكـنة لـسحقِ ذلـك المخلـوق وقتله. أما الطُّيور الدَّاجـنة، تلـك الـوادعة مـثلما هـي كـذلك الطُّـيور في الطَّـبيعة، تـندفعُ نحوَ المرآةِ باستياءٍ شديد، صارخةً بفمٍ مفـتوح علـى مـصراعيه وأجنحتها مقوَّسة، وتنهال على المـرآة نقـراً. والقـرد، عـندما يُـتاحُ له ذلك، فإنَّه يرمي بالمرآة أرضاً ويشرَعُ يدوسها بقدميه.

XLIX

بحكـمِ الطَّـبيعة، يكـرهُ الحـيوانُ شـبيهَه، وهـذا مطلـوبٌ لجهـة النزعة التي فيه، التَّعدِّي. لهذا، ليس في مقـدور الإنـسان الهرب لا من الكراهية ولا من العداوة: أمَّـا الازدراء فقد يُقدَرُ عليه. كثيرةٌ هي المرَّات التي نرى

فيها الشَّباب والأشخاص الخارجين حديثاً إلى العالم ينحنون احتراماً لمن يستقوي عليهم، وهم لا يفعلون هذا لرعونة فيهم، ولا لغايةٍ عندهم، ولكن لمجرَّد الرَّغبة في ألاَّ يجلبوا العداوة على أنفسهم، وطبعاً لسلبِ النُّفوس. في النِّهاية، هم لا ينالون شيئاً من تلك الرَّغبة، وبطريقةٍ أو بأخرى لا يفعلون سوى جرحِ اعتبارهم لأنفسهم. ذاكَ أنَّ المحتَرَمَ يزيدُ تقديرُه لنفسه، والمحترِم ينقُص. هاكم نصيحتي، لا تسعَ وراء الآخرين لجاهٍ أو منفعة، ولا حتَّى للفوز بمحبَّتهم التي لن تُطال بطبيعة الحال. احفظْ تمامَ رفعتِك، معطياً للآخرين لا أكثر ممَّا أنت مدينٌ لهم به. أعرفُ، القليلُ سوف يكونُ مبغوضاً ومضطهَداً، ولكن ليس مُزدرىً دوماً.

L

في كتابٍ للحِكَم والأقوال المأثورة يملكه العبرانيُّون، منقولٍ، كما يُقال، عن العربيَّة، فيما يؤكِّدُ آخرون بما يشبه اليقين أنَّه عبريٌّ محض، نقرأ من بين كثيرٍ من الأشياء الأخرى التي لا قيمةَ لها، أنَّ أحد

الحكمـاء، ولا أعـرف مـن يكـون، يجـيب علـى قـول أحـدهم لـه: أتمنَّـى لـك الخير، قائلاً: أه، ولمَ لا؟ ما دمتَ لست من ديانتي، ولا من أهلي، ولا جاري، ولا شخصاً لـه صـلةٌ بي. الكراهية نحو أشباهنا، هي أعظم نحو الأكثر شبهاً. اليافعون هم، لألفِ سببٍ وجيهٍ، أكثر مـيلاً نحو إقامة الصَّداقات من غيرهم. مع هذا، فهو أمرٌ شـبه مـستحيلٍ أن تنـشأ صداقةٌ قد تدوم طويلاً بين اثنين يعـيش كلاهمـا الحياة النَّمطيَّة للشَّباب نفسها. أعني ذاك النَّمط من الحياة التي تُسمَّى هكذا في زمننا، والتي تتركَّزُ أساسـاً حولَ النِّساء. بل إنِّي أقول إنَّ نجاح هذا الأمر بين هـذين هـو أقلُّ الممكـن، سـواء بسبب اللَّهبان المتوقِّد للعواطف، أو بسبب المنافسة في الحُبِّ والغيرة التي من المـستحيل تجـنُّب نـشوئها بيـنهما، وطـبعاً لأنَّ، كمـا تلاحظ مدام دي ستيـل[1]، الحظَّ الزَّاهر مع النِّساء دائماً مـا يـولِّد أحقـاداً، حتَّـى في نفـسِ الـصَّديق الأعظـم للمحظـوظ. النِّساء يـأتين بعد المال، تلك القضيَّة التي

---

(1) هيَ آنَّا لويس جرماين دي ستيل هولستين (1766-1817)، كاتبة كان لها تأثيرٌ في أوروبا بدايات القرن التاسع عشر، المترجم.

يكـون فـيها الـرِّجال أقـلُّ قابليَّةً للجدال وأقلُّ قدرةً على الاتِّفـاق، وحـولها تـرى المعـارف والأصدقاء والأخوة يتـبدَّلون في الظَّاهـر والجوهـر: هنا، يتحوَّلون إلى هَمَجٍ ووحـوش. وإذا كـانَ الأمـر يبدو هكذا أقلَّ تأنسُناً عندما يـتعلَّقُ بامـرأة، فهـو أيـضاً أكثر تحاسداً منه فيما لو كان مـتعلِّقاً بالمال؛ الأوَّلُ محضُ عبثيَّةٍ، أو بالأحرى، لنقُل هكذا، محضُ انوهامٍ بالحبِّ الخاصِّ والشَّخصيِّ، الذي هـو بالنـسبة للجميع الحبُّ الخاصُّ والشَّخصيُّ. وحيث أنَّ جمـيع الـرِّجال سـواءٌ في هذا، لا يمكن أبداً أن ترى واحداً منهم يحمل امرأةً على الابتسام أو يسمعها كلماتٍ رقـيقة، خـشيةَ أن يضعه الحاضرون، سواء في العلن أو في السَّريرة، في دائرة السُّخرية. أيَّاً يكن، وبما أنَّ نصف المتعة عند أولئك المحظوظين في هذا، مثلما هو كذلك عـند الجميع في أكثر الأمور الأخرى، يكمنُ في الإخبار عنها، فغنيٌّ عن القول إنَّ الشَّباب يحقِّقون متعتهم الغالية هـذه قـبلَ كـلِّ شـيءٍ مع أقرانهم الشَّباب: ولكيلا تكون القـصَّةُ مـضجرةً لأحـد، فهـم في أغلب الأحيان، حتَّى عند روايتهم للحقيقة، يحرصون أن يطعِّموها بالظَّرافة.

LI

بمعـرفةِ كـم هـي قلـيلةٌ المـرّات الـتي يكـون فيها الإنسان مُوجَّهاً في أفعاله وفق تقديرٍ صحيحٍ لما قد يفيده أو قد يضرّه، تمكن معرفة كم هو من السُّهولة بمكان أن يُترك مُضلَّلاً ذاك الذي، في اجتهاده للعثور على حلٍّ ما مخفـيٍّ، تجـده يتفكّـر ملـيّاً: تُـرى على من سوف يعود الـنَّفع الأعظم الذي ينتظرُ لأجله، له أو للآخرين؟ ذلك الحـلَّ. يقـول غويتـشارديني[1] في بدايـة الكتاب السَّابع عـشر، مـتحدِّثاً عـن المجـادلات الـتي دارت حـولَ القـرارات الـتي كـان ليـتَّخذها فرانتشِسكو الأوَّل، ملك فرنسا، بعدَ تحرُّره من قلعة مدريد: «يعطي أولئك الذين يجادلـون في هـذا الشأن اعتباراً لماهية القرار الذي عليه اتِّخـاذُه منطقـياً، أكبر ممَّـا يعطـون لمـا هي عليه طبيعةُ ورزانـة الفرنـسيين. هـذا، بالطَّبع، خطأٌ كثيراً ما تقع فيه الآراء والأحكـام الـتي تُـتَّخذ بـتأثيرٍ مـن نـزعة وإرادة الآخـرين». لعـلَّ غويتـشارديني هـو المؤرِّخ الوحيد بين

---

(1) فرانتشِسكو غويتشارديني (1483-1540)، مؤرخ إيطالي يُعَدُّ أب التاريخ الحـديث وذلـك لاعـتماده علـى الوثائـق الحكومـية في دراسـته لتاريخ إيطاليا، المترجم.

الحديـثين الذي عرفَ الإنسانَ جيِّداً، وبنى فلسفته حول الوقائـع علـى قاعـدة المعـرفة بالطَّبيعة الإنسانيَّة، وليس فقـط علـى محـض علـومٍ سياسـيَّة مـستقلَّة عـن علـوم الإنـسانيَّات، وفـوق ذلـك وهمـيَّة، لطالمـا عوَّل عليها المؤرِّخـون، وتحديـداً أولـئك الـذين هم خلف الجبال وخلف البحار، الذين قصروا نقاشاتهم على الوقائع فقط دونَ إتعـاب أنفـسهم بالـتفكير أكثـر نحـو الأمـام، غـير سـعيدين، كمـا هـو حـال الطائفـة العظمى منهم، بهذا الأسلوب في قصِّ التَّاريخ.

LII

ظنِّـي، لا أحـد يـتعلَّمُ فنَّ العيش، ما لم يتعلَّم فنَّ مُـسارَّة الهـبة، هـذه المفـردة الصَّغيرة الخالصة خلوصَ الـنَّقاء، وأعـني الهـبةَ الـتي قـد تأتيـنا مـن الآخـرين، وبـالأخصِّ تلـك التَّلقائـيَّة، ذاكَ أنَّهـا جلـيلةٌ ومُضاعفة: لـيس فقـط هـي، ولكـن أيـضاً السُّؤلَ الأزليَّ وبلا نهاية للأشـياء التي يؤتاها الآخرون باستحقاقهم، هؤلاء الذين يعيِّـنون أحـوال وظروف الشيء، ثمَّ باجتهادهم الخاصِّ يـنالونه. ولـو حـدثَ في الـنِّهاية وبسبب اضطرارك، أو

انهـزامك تحـت وطء الحاجـة، أو لأيٍّ سببٍ آخر، أنْ عميتَ فـرأيتَ سؤلَكَ يمكن أن يؤتى من لَدُن أحدهم، فـسوف تجـدُ وجـهَ هذا يمتقعُ ويشحب، وبعد أن يبدِّل الحديث، أو يجيب بكلماتٍ ليس لها أيُّ معنىً، يتركك معلَّقـاً بـلا نتيجة. ومُذَّاكَ اليوم، ولأمدٍ ليس بقصير، لن يكـون مـن حـسن طالعـك إذا مـا حـصلَ وجمعَـتْكَ به المـصادفة، وإذا مـا اسـتذكرته بمُكاتـبةٍ في إحـدى المناسـبات، فـلا تنتظـر ردّاً. لا يحـبُّ الإنـسان فكـرة التَّنفـيع، لأنَّ التَّنفـيع مزعجٌ في حدِّ ذاته، ولأنَّ حاجات الـنَّاس ومحـنهم تولِّدُ متعةً ما في نفوس الآخرين، لكنَّه يحـبُّ كـثيراً فكـرة المـنفعة، والمجَّانيَّة المقابلة، وذاك الـتَّفوُّق الـذي يجيء به الانتفاع. في الحقيقة، هذا النَّمطُ لا يهـبُكَ إلاَّ الـشيء الذي لا يريد إعطاءه لك: وبقدْرِ ما يراكَ مترفِّعاً ومتمنِّعاً، بقدْرِ ما يُصرُّ على أن تأخذ الهبة، أوَّلاً لـرغبةِ الإذلال، وهـو المـرجَّح، وثانـياً والأقـل تـرجيحاً للخـوف مـن أنَّـك قـد ترفـضها. هكذا، لخفَّة تبـصُّرهم في تقديـر الخطـر المحقَّـق في أن يعـودوا مخـذولين، تـراهم يـندفعون بجـرأةٍ لا توصـف وبعـناد يـتجاوز كـلَّ الحـدود، غـير راجين أكثر من أن يسمعوا

كلمـة شـكر. لكـن ما أن يسمعوا سُؤلَكَ الحقيقي، حتَّى تراهم يولُّون أدراجَ الرِّياح.

LIII

يقول بيونِه، أحد الفلاسفة القدماء: من المستحيل أن تُحَـبَّ مـن الجموع، ما لم تَصِرْ فطيرةً أو نبيذاً حلواً. بـيدَ أنَّ هـذا المـستحيل دائمـاً مـا كـانَ، بحكـمِ النِّزعة المجتمعـيَّة للإنـسان، مطلـباً للجميع، مطلبَ من يقول بـذلك، ومطلبَ من قد يعتقد بغيرِ ذلك: يا للعارفين في الإنـسان، كـيف أنَّهـم، ومـنذ الأزل الأوَّل لوجـوده، يواظبون حتَّى موتهم على البحث عن السَّعادة، ويعدون بها.

LIV

خُـذهُ مـبدأً عامَّـاً، إلاَّ أن يكـون لأمـدٍ قصير، أنَّ الإنـسان، وبـرغم أيِّ ثـبوتٍ وجلاءٍ لضدِّ ما يصدِّقه، لا يتـراجع أبـداً بيـنه وبـين ذاتـه، بـل ويخفـي ذلـك على الجمـيع، عن تصديقه بمضدود ذلك؛ التَّصديقُ أساسيٌّ لهدوء النَّفس، ولِنَقُل هكذا، للتَّمكُّنِ من مواصلة الحياة.

الشَّيخ، لاسيَّما إذا كان شديد التعلقِ بالدُّنيا، فإنَّه، وبرغم زعمه بعكس ذلك، لا يرجعُ في سريرة عقله قيدَ أنملةٍ عن التَّصديق بأنَّه ما زال، بفضلِ استثناءٍ خاصٍّ جداً له عن القاعدة الكونيَّة، وبطريقةٍ مجهولةٍ وعصيَّةٍ حتَّى على فهمه هو، قادراً على تركِ انطباعٍ ما عند النِّساء: وإلاَّ فإنَّ حاله سيكون في منتهى البؤس لو صدَّقَ كلِّيَّاً بأنَّه مُقصىً في كلِّ شيء وإلى الأبد عن تلك النِّعمة التي في سبيلها، مرَّةً بهذه الطَّريقة ومرَّةً بتلك، مرَّةً أكثر ومرَّةً أقل، يضيِّع الإنسان المتحضِّر نعمةَ الحياة، هكذا دائراً على نفسِه. المرأة سيئةُ الصِّيت، ومع أنَّها تقرأ كلَّ يومٍ ألفَ علامةٍ في وجوه النَّاس عن رأيهم فيها، لا شيء يمكن أن يزحزحها عن التَّصديق باستمرار بأنَّها في اعتقادِ الجميع امرأةٌ صالحة، وبأنَّ عدداً صغيراً فقط من المؤتمَنين القدماء والجدد على أسرارها (أقول صغيراً بالنِّسبة إلى تعداد الشَّعب) يعرفُون، ويخفون على العالم، وحتَّى واحدهم على الآخَر، سرَّ حقيقتها. الرَّجُلُ الضَّعيفُ، وبسبب ضعفه وقلَّةِ جرأته، وبرغم نباهته بأحكام الآخرين، لا يملك غير أن يصدِّقَ بأنَّ طريقة تصرُّفِه تُأوَّلُ في أذهانهم بأفضل معنىً، وبأنَّ

السَّبب الحقيقيَّ وراء ذلك التَّصرُّف ليس بأيٍّ حالٍ من الأحوال مُحتَوىً في أذهانهم. كمثلِ هذا، يُصدِّقُ المشعوذ بأنَّ المريض الذي على شفا الموت لا يعطي أيَّ رجاءٍ للأطبَّاء وللأصدقاء، ولكن فقط للجلال الخصوصيِّ لحضوره، هو الذي وحده بيده الخلاص من الخطر الحاضر. ولن أتطرَّق إلى التَّصديق واللاتصديق الرَّائعين للأزواج تجاه زوجاتهم، فهذه مادَّةٌ قد تصلحُ للرِّواية، لعرضٍ مشهديٍّ، لصوغٍ طرفة ولابتسامة لامحدودة حولَ تلك الشعوب التي تعدُّ الزَّواجَ وثيقةً تقبلُ الإلغاء. وهكذا، فقول هذا هو ليس محضَ تزييفٍ ولا محضَ حماقة، أنَّ الإنسان، بمن في ذلك ذاك الأكثر سداداً في الرَّأي، ينزعُ في كلِّ مرَّة إلى التَّصديق بمضدود ما لا يجلبُ السَّكينة والسَّلام للنَّفْس. لن أغفل القول بأنَّ الشُّيوخ هم أقلُّ استعداداً من الشَّباب على التَّخلِّي عن التَّصديق بما يعتقدون به واعتناق المعتقدات التي تجرحهم: لأنَّ الرُّوح عند الشباب هي أكثر قدرةً على تحويل جهتها بعكس جهة الشَّر، وأكثر جدارةً على تثبيت المعرفة، أو الموت.

LV

المرأةُ التي تبكي بقلبٍ صادقٍ زوجها المتوفِّي يُهزأ بها. فيِ الوقت نفسه، إذا ما هي اضطُرَّت، لأيِّ سببٍ أو حاجةٍ قاهرة، إلى الخروج إلى النَّاس، أو لمجرَّد خلع اللون القاتم لفترةٍ وجيزة قبل أن تعود ثانيةً لارتدائه، تراها وقد مُطِرَتْ بوابلٍ من النَّقد. هو قولٌ مستهلَكٌ، لكنَّه ليس كاملاً، القولُ بأنَّ العالمَ لا يرضى سوى بالظَّاهر. أضيفُ لأكمِّلَه، أنَّ العالمَ لا يرضى بشيء، وهو غالباً لا يكترث، وغالباً ما يكونُ متعصِّباً تلقاء الجوهر. العالم القديم، كان يبحث أكثر عن أن يكون الانسانُ إنسانَ جوهرٍ لا إنسان مظهر؛ أمَّا هذا العالم فيطلبُ أن يظهر الإنسانُ إنسانَ جوهر، لا أن يكونه.

LVI

الصَّراحة يمكن أن تنفع، لكن فقط عندما توظَّفُ في الفنِّ، فلنُدرتِها، لا تُمنَحُ الثِّقة.

LVII

الإنسانُ يخجل، لا من الأخطاء التي يقترفها، ولكن من تلك التي يتلقَّاها. لهذا، لأجلِ أن يُحمَلَ المخطئون على الشعور بالخجل، لن يكون من سبيلٍ آخر، سوى تبديل المواقع.

LVIII

الرِّعديدون لا يتملَّكهم الحبُّ بأقلِّ ممَّا يتملَّكُ المتعجرفين؛ بل بأكثر، أو لِنقُل بأكثر إحساساً؛ ولهذا السَّبب هم يخافون: ويحرصون ألاَّ يَخِزوا مشاعر الآخرين، لا تقديراً للكِبر الذي يتصنَّعه أكثر المتكبِّرين والمتغطرسين، ولكن ليجنِّبوهم أن يُلدَغوا تلك اللدغات الأليمة التي لُدِغوها هُم من كلِّ صوب.

LIX

شيءٌ قِيلَ أكثر من مرَّة، أنَّه عندما ينحدرُ الجوهر يرتفعُ المظهر، وعندما يفقرُ المعنى يتبرَّجُ المبنى. يبدو أنَّ الكتابةَ هي الأخرى تخضعُ للمصير نفسه. هذا أنَّه في

زمننا، بقدْرِ ما يفتقرُ النَّصُّ، لا أستطيع القول لاستخدام، ولكن لظلال الأسلوب الجوهريِّ، بقدْرِ ما تزدادُ روعة الطِّباعة، لا يوجد كتابٌ كلاسيكيٌّ طُبع في الماضي بمثل هذه الأناقة التي تُطبَع بها اليوم المجلاَّت وغيرها من الدَّوريَّات السياسيَّة التي تُشترى لتُرمى بعد ساعات: أمَّا فنُّ الكتابة، فلم يعُد معروفاً، ولا حتَّى يُسمَعُ باسمِه. أنا على يقينٍ من أنَّ كلَّ إنسانٍ صالحٍ على وشك أن يفتحَ الآنَ أو يقرأ كتاباً، سوف يشعرُ بالحزن لهذه الأوراق ولهذه الأحرف الصَّارمة التَّنسيق، والمسخَّرة لحملِ كلماتٍ مُفزِعة، وأفكارٍ جلُّها مصابٌ بالعطالة.

LX

يقول لا برويير[1] عبارةً جِدُّ مُصيبة، أنَّه أكثر سهولةً أن يَنالَ كتابٌ متوسِّط المستوى صيتاً من جهة أنَّ كاتبه هو ذو شهرةٍ ذائعةٍ سلفاً، من أن ينالَ كاتبٌ ما شهرةً من جهة أنَّ كتابه فائقُ المستوى. يُمكن أن يُضافَ

(1) جان دي لا برويير (1645-1696)، كاتب مقالات فرنسي كان أستاذاً في علم الأخلاق، المترجم.

علـى هذا القول، أنَّ الطَّريق الأقصر إلى نيل الشهرة هي التَّثبُّت بقوَّةٍ ويقين، وهذا ممكنٌ، من نيلِ الطَّريق نفسِها.

LXI

مغـادراً سـنيَّ الـشَّباب، يظـلُّ الإنسان مُتمَلِّكاً من الرَّغبة بالتَّواصل، أو لِنَسمِّها الرَّغبة بِبَثِّ نفْسِه للآخرين؛ هـو يعـرفُ الآن بـألَمٍ أنَّـه قـد فَقَـدَ ذاك النَّوع من التَّأثير الـسَّاحر الذي يمارسُه الشَّابُّ على المحيطين، ويجعلُهم يعتلقونه، شاعرين كما لو أنَّ ثمَّةَ نزعةً ما خفيَّة تنزع بهم نحـوَه. يعـرفُ هذا، ويعرفُ الآنَ بألمٍ جديدٍ آخر، أنَّه، وهـو في صـحبتهم، مفـصولٌ عـن الجمـيع، ومحـاطٌ بمخلـوقاتٍ ذات مـشاعر، هي نحوَهُ ليست أكثر اختلافاً بكثير عن تلك التي بلا شعور.

LXII

الأسـاس الأوَّل لأن تكون مُعَدَّاً للقليل من البذل، هو الكثير من التَّقييم.

LXIII

الفكـرة الـتي يكـوِّنها الفـنَّان عن فنِّه أو العالِم عن عِلمـه عـادةً مـا تكـون رائعةً بنسبةٍ عكسيَّةٍ إلى تلك التي يكـوِّنها هـذا عن قيمةِ فنِّه في حدِّ ذاتِه، أو ذاكَ عن قيمةِ عِلمه في حدِّ ذاتِه.

LXIV

ذاكَ الفـنَّانُ أو العـالم أو المـثقَّفُ في أيِّ فـرعٍ من فـروع المعـرفة، الـذي اعـتادَ أن يقـارنَ نفـسَه، لا مـع أنـداده، وإنَّمـا مـع نفـسِه، هو بقدْرِ ما يتفوَّق، بقدْرِ ما يـتدهور رأيـه في نفسِه: هـذا أنَّـه كلَّما أوغلَ وعمَّقَ في معـرفةِ نفـسِه، كلَّمـا وجـدَ نفـسَه أقـلَّ رتـبةً. هكذا هم متواضعون أغلبُ العظماء في التَّاريخ، لأنَّهم لا يتوقَّفون عـن مقارنـة أنفسِهم، لا مـع الآخـرين، وإنَّما مع تلك الفكرة عن الكمال التي يملكونها أمام روحهم، ويعرفون إلى أيِّ درجـةٍ هم بعيدون عن بلوغها، هذه الفكرة التي هـي إطلاقاً أنقى وأعظم من تلك التي يملكها العامَّة. أمَّا هـؤلاء، فهم يعتقدون بكلِّ بساطة، ومرَّاتٍ بتيقُّنٍ كبير، أنَّهـم قـد بلغـوا، بـل وفاقـوا فكـرة الكمال، هذا الذي يتفسَّخُ في نفوسهم.

LXV

ما مِن رفقةٍ تبقى ممتعةً لنا على الأمد الطَّويل، إن لم تكـن مـع شخصٍ نحبُّ منهُ تقديره لنا. لذلك، عندما تـرغب المـرأة بألاَّ تبطَلَ رفقتُها ممتعةً بعد فترةٍ قصيرة، فإنَّها تجهد في كلِّ لحظةٍ على أن تبقى هي نفسُها ممتعةً، وهذا بأن تُطيلَ ما أمكن زمنَ تقديرِها لتلك الرُّفقة.

LXVI

في هـذا القـرن، يُنظَـر إلى الـسُّود بأنَّهم من عرْقٍ وأصـلٍ مخـتلفَين كلِّـيَّاً عـن البيض، لذا فهم ليسوا كُلِّيَّاً متساوين مع هؤلاء بالنِّسبة إلى حقوق الإنسان. في القرن الـسَّادس عـشر، وبالـرَّغم مـن أنَّ السُّود يتَّصلون بجذرٍ واحدٍ مع البيض، وهو ما أكَّده الأنثروبولوجيون الإسبان أكثـرَ مـن سواهم، كانَ يُعتقد بأنَّهم، لحكمةٍ من الطَّبيعة أو حكمـةٍ من الله، من مرتبةٍ أدنى بكثير من مرتبتنا. وفي ذاكَ أو ذاكَ القـرن، كـان الـسُّود ولا زالـوا يُـباعون ويُشترَون، ويُشَغَّلون في الأقبية تحت نيران السِّياط. هذه هـي الأخلاق: نعتقد بالنَّظريات الأخلاقيَّة ثمَّ لا نأتي إلى التَّطبيق.

LXVII

ليس موافقاً تماماً القول بأنَّ السَّأمَ هو مرضٌ عامٌّ. العامُّ هو العطالة، أو هو، بكلمةٍ أفضل، التَّعطيل؛ وليس السَّأم. السَّأمُ لا يكون إلاَّ عند أولئك الذين فيهم شيءٌ من الرُّوح. حين تكونُ الرُّوحُ حياةً وقوَّةً في الواحدِ، يكون السَّأمُ أكثر تردداً وإيلاماً. الطَّائفة العظمى من النَّاس تجدُ تشبُّعَها الكافي في أيِّ شيءٍ يكُن، ومُتعتَها الكافية في أيِّ إشباعٍ فارغ؛ ولهذا، فهي عندما تتفرَّغُ من كلِّ شيء، لا تراها تجد في ذلك ألماً كبيراً. من هنا لطالما أسيءَ فهمُ ذلك السَّأم الموجود عند أولئك الرَّقيقي المشاعر، ولطالما قابلَ العامَّة الأمرَ مرَّةً بالضَّحك ومرَّةً بأمارات الدَّهشة كلَّما سمعوهم يتحدَّثون عن أنفسهم، مجرِّحينَ فيهم بكلماتٍ قاسية، ولعلَّ هذا هو ما يمكن القول بتوافقٍ تامٍّ بأنَّه أعظمُ الأمراض في الحياة وأكثرها شمولاً.

LXVIII

السَّأم هو بمعنىً ما الأكثر جلالاً بين المشاعر الإنسانية. لا لاعتقادي بأنَّه الرَّحم الذي تولد منه تلك الأفكار الرَّائعة التي يلتقطها الكثير من الفلاسفة، بل لأنَّه

فـوق ذلـك الـشُّعورُ الـذي لا يمكـن لأيِّ شـيءٍ دنيوي إرضـاءَه، ولا حتَّـى الدنـيا بأسـرها؛ انظر هذا الانفساح اللامحدود للفضاء، الشُّسوع والعدد المُدهشَ للعوالم، تجدهُ كُلَّهُ ضئيلاً وصغيراً أمام السِّعة الهائلة للنَّفْس. تخيَّل الكـمَّ المُطلَـقَ مـن الكواكب، الكونَ المُطلَقَ، تشعرُ أنَّ النَّفسَ والرَّغبةَ في الإنسان تتَّسعُ لهذا المُطلَق؛ بعد هذا، أن نـتَّهمَ الوجـودَ بأنَّـه ناقصٌ أو معدوم، أن نعاني الفَقْدَ والفـراغ والـسَّأمَ، يبدو لي هذا أعظم إشارةٍ على الرَّوعة والعظمة يمكنُ قراءتُها في الطَّبيعة الإنسانيَّة. لذلك، كانَ الـسَّأمُ قلـيلاً لدى الإنسان الفارغ، ونادراً أو معدوماً في باقي الحيوانات.

LXIX

من الرَّسائل المشهورة لشيشرون، تلك التي يحثُّ فيها لوسيوس على تأليف قصَّةٍ عن مؤامرة كاتالينا، وفي رسالةٍ أخرى أقلّ شهرةً من هذه لكن لا تقلُّ عنها أهميَّةً، نـرى الإمـبراطور فـيرو يتوسَّـل إلى معلِّمـه فـرونتون أن يدوِّنَ، كما فعل فعلاً فيما بعد، أحداث الحرب المُدارة مـن قِـبَلِه. رسـائلُ شـبيهة تمامـاً بهـذه التي تُكتَب اليوم

للصحفيِّين، ما عدا أنَّ المعاصرين يطلبون مقالات صحفيَّةً فيما كان القدماء يطلبون كتباً. هكذا، فإنَّ مصداقيَّةَ القصَّة يمكن أن توضع موضعَ نقاش، لاسيَّما عندما يكون الكتَّاب معاصرينَ للمكتوب عنهم، ومن ذوي الصِّيت الذَّائع.

LXX

أكثرُ تلك الأخطاء التي نسمِّيها طفوليَّةً، والتي عادةً ما يقترفها الشُّبَّان قليلو التَّجربة، وأولئكَ، سواءٌ الشُّبَّان أو الشُّيوخ، المُدانون من جهة الطَّبيعة لكونهم أكثر من رجال لكن أصغر من أطفال- هي أخطاءٌ لا تكمن، عند التَّحقيق فيها، إلاَّ في هذا: أنَّ من يقول ذلك يظنُّ ويحكمُ بأنَّ الرَّجُلَ هو أكثر طفوليَّةً مما هو في الحقيقة. يقيني، أنَّ أقسى ما يكسرُ، حدَّ الانهزام، الروحَ لدى الشُّبَّان وهم في ولوجهم إلى هذا العالم، هو ذلك التَّهاتُرُ، التَّهاترُ العامُّ والجمعيُّ، في العمل والتَّسلية والنِّقاش وفي ميول ونفوس الأشخاص: تهاترٌ، شيئاً فشيئاً، يتأقلمُ الشُّبَّان معه، لكن ليس دون ضريبةٍ وألم، يجعلهم يتمنَّون لو يعودون مرَّةً أخرى أطفالاً. هكذا هو الأمر حقَّاً: أنَّ الشَّابَّ نقيَّ الفطرة وصَّافي السَّجيَّة،

عـندما يـبدأ، كمـا يُقال، بالحياة الحقيقيَّة، يغلبه شعورٌ بالـرَّغبة في التَّراجع، واللوذِ قليلاً بالطُّفولة. يكتشفُ أنَّه كـانَ مُـضلَّلاً باعـتقاداته الـسَّابقة، أنَّ عليه الآن أن يصيرَ رجـلاً ويطـرح عـنه كـلَّ أثـرٍ للطِّفلـيَّة. ذاك أنَّ القـضيَّةَ معكوسة، فالإنسان عموماً، كلَّما تقدَّم في السِّنين، كلَّما ازداد قرباً من الطُّفولة.

LXXI

مـن هـذه الفكـرة أعـلاه الـتي يملكها الشَّابُّ عن الـرِّجال، أعـني أن يحـسبهم رجـالاً أكثـر ممَّـا هـم في الحقـيقة، ينـشأ في نفسِه ذلك الهَلَعُ الذي يولَد عند كلِّ مـرَّةٍ قد يفشل فيها، وعلى إثرِه يعتقدُ أنَّه قد فَقَدَ التَّقدير المكـنون لـه في عيون أولئك الشاهدين على فشلِه. لكن قليلاً وتعود السَّكينة إلى نفسِه، ليس دون اندهاشةٍ منه، حالما يُفاجَأ بهم يعودون إلى معاملته مثلما كان دأبُهم في البداية. النَّاس غير مستعدِّين بهذه البساطة لسحب اعتبار الآخـرين مـن نفوســهم، لأنَّ الأمـرَ أصـلاً لـيس في مقـدورهم، وهم ينسون الأخطاء بسهولة، لأنَّ الأخطاء أصـلاً لا تـنقطع وهـي لا تُعَـدُّ ولا تُحـصى. وهُم ليسوا

متجانسين مع أنفسِهم، إذ ليس مستغرَباً أن يقعوا اليوم، ببساطةٍ، في حبِّ ما كانوا يهزأون به البارحة. هذا يمكن إثباتُه انطلاقاً من أنفسنا نحن، فكثيراً ما نغتابُ هذا الشَّخص أو ذاك بكلماتٍ جارحة، أو نأخذه هُزءاً، فإذا ما صارَ في الغدِ في محضَرِنا عادَ إلى دائرة التَّقدير.

LXXII

مثلما هو هذا الشَّابُّ موهومٌ بالخوف، كذلك هم موهومون بالأمل أولئك الذين عندما يجدون اعتبارَهم قد قلَّ أو غابَ في نفْسِ أحدِهم، يجهدون بلَجاجٍ على إظهار وتكرار كلِّ أشكال التَّزلُّف والاحترام في سبيل استرجاع مكانتهم. ليس التَّقدير بثمن الاحترام، ولا هذا بمعادل له: التَّقدير مثلُ الصَّداقة، كلاهما مثل زهرةٍ، عندما تُقلَعَ أو تداس لا يمكن أن تعود بعد ذلك أبداً. ومن ذاك الاحترام المتزلِّف الذي يمكن أن نسمِّيه هواناً ذاتيَّاً، لا يمكن أن يُجنى شيءٌ غير مزيدٍ من الشُّعور بفقدان التَّقدير. صحيحٌ أنَّ الازدراء، بما فيه ذاكَ غير العادل، يبقى ألماً لا يمكن أن يُحتمَل لأيِّ إنسان، فعندما نُمَسُّ به، قليلون منَّا القادرون على الثُّبوت بلا

حـركة، وعلـى ألاَّ يـصارعوا، وبكلِّ السُّبل المتاحة بما فـيها غـير المجدية، يصارعوا للتَّحرُّر منه. ولعلَّها ظاهرةٌ جـدٌّ عامَّـة لـدى الـرِّجال متوسِّطي الحال، أنَّهم يدَّعون الأنَفَـة والتَّـرفُّع مـع أولئك الذين لا يختلفون حالاً عنهم ومـع الـذين يُظهـرون اهـتماماً بهـم، لكـنَّهم، عند أوَّل علامـةٍ على انعدام الاهتمام، سرعانَ ما يبدؤون بالتذلُّل لـئلاَّ يعانـوا جرَّاء تلك اللامبالاة، وتراهم يلجؤون لكلِّ فعلٍ رخيص. ولكن، هذا أيضاً صحيحٌ، أن تفعلَ، حين تـشعُر بنفـسك مُـزدرىً مـن أحـدهم، بحـيث تـردُّ لـه بعلامـات ازدراءٍ مُـضاعفة: لأنَّـكَ عندها، وهذا مرجَّحٌ تماماً، سوف تشاهدُ كيف يتحوَّلُ الفخرُ لديه إلى مهانة، لأنَّـه مـا مِـن نظـرةٍ أكثـر ازدراء من نظرةٍ تتصاحبُ فيها إشـاراتُ الإذلال مـع إشـارات التَّقديـر، وهـذا أشـدُّ العقاب.

LXXIII

مـثلما هـنَّ كُـلُّ النِّساء تقريباً، كذلك هم الرِّجالُ عمـوماً، وبـالأخصِّ الأكثر رِفعَةً، يزدادون شرَّاً وتعصُّباً أمـام الإلغـاء والـتَّحقير، أو بالأحرى أمام الحاجة، ولا يكفُّـون في الـوقتِ نفـسهِ عـن الظُّهـور بـأنَّهم مُهمَلـون

ومُهانون. ذاك أنَّ تلك الرِّفعة ذاتَها التي تجعلُ ذاكَ العدد غير المحدود من أصحابها يستكبرون على المذلولين وجميع مَن يقدِّمون لهم أمارات التَّبجيل، هي ذاتُها التي تجعلهم أرقَّاء الحاجةِ إلى ذاكَ التَّقدير وتلك النَّظرات في عيون مَن لا يَهبُهم إيَّاها أو يُظهِرُ لهم أنَّها غير موجودة. مِن مثلِ هذا، تنشأ، وليس نادراً بل كثيراً وليس فقط في الحُبِّ، علاقاتٌ فَكِهة بين شخصين، فمرَّةً هذا ومرَّةً ذاك، وفق إيقاعٍ لا نهاية له، اليوم مُهمَلٌ لا مُهمِل، وفي الغد مُهمِلٌ لا مُهمَل. بل يمكن القول إنَّ هذه اللعبة من العلاقات هي بمعنىً ما، قليلاً أو كثيراً، جليَّةٌ في جميع المجتمعات الإنسانيَّة. فكلُّ مكانٍ في العالم مليءٌ بأولئك الذين إذا سُئلوا يهملون، وإذا حُيُّوا لا يردُّون، وإذا تُبِعوا يفرُّون، ثمَّ إذا أديرت لهم الأكتاف أشيحت عنهم الوجوه، يستديرون، ويهرعون خلفَ الذي أهانوه، ثمَّ ينحنون.

LXXIV

الرِّجال الرَّائعون، وبالأخصِّ أولئك الذين يشعُّون بلألأةٍ رجوليَّةٍ فائقة، يبدو العالم أمامهم مثل امرأة. هيَ لا تستحسنُهُ فحسب، ولكن تشغفُ به. ذاك أنَّها تقعُ في

حبِّ تلك القوَّة. غالباً، كما يحدُثُ للمرأة، الحبُّ نحو هؤلاء يكون كبيراً، وذلك باسمِ الإذلال الذي يُظهِرون، والسُّوءى التي يفعلون، والخوفِ الذي يبثُّون في نفوسِ المُستَضعَفين. كمثلِ هذا، كان نابليون معشوقاً من فرنسا، ومعبوداً حتَّى من الجنود الذين كانَ يدعوهم باللحم المدفعيِّ[1] ويعاملهم على هذا الأساس. وكمِثلِه كثيرون ممَّن كانوا دائماً محبوبين لشخصِهم وبغضِّ الطَّرْفِ عن أفعالهم في الحياة، واليوم نرى في كتب التَّاريخ كيف أنَّ المؤرِّخين مُستَدرَجون إلى ذلك الحُبِّ. لعلَّ شيئاً من التَّوحُّش والإغراب مرغوبٌ عند هؤلاء أيضاً، مثلما هو مرغوبٌ عند النِّساء من عشَّاقهنَّ. في رأيي، شخصيَّةٌ مثل أخيل هي جديرةٌ كُلِّيَّاً بالحبِّ: أمَّا شخصيَّاتٌ مثلَ إنياس وغوفرِدو، وحكمة هؤلاء وحكمة عوليس، فجميعها لا تولِّد تقريباً غير الكُرْه.

(1) تعبيرٌ يُطلَق على الجنود الذين يُخاطَر بهم بإرسالهم إلى المعركة بإمكانيَّاتٍ ضئيلة لا يمكن أن تبقيهم على قيد الحياة، المترجم.

LXXV

في معـان أخـرى كثيرة، المرأة هي مثلُ صورةٍ لما هـو عليه مُجمَلُ العالم: ذلك أنَّ الضَّعفَ هو سمةُ العدد الأعظـم مـن الـرِّجال، وهـذا الـضَّعف، مقابل القليلين أقوياء الفِكْرِ أو القلبِ أو اليد، يجعلُ تلكَ الأكثريَّة تبدو مثل ما تبدو عليه الأنثى أمام الذَّكَر. وعليه، فبنفْسِ سُبُلِ التَّفـنُّن يُـنَالُ الاثـنان، المـرأة والجنس البشريُّ: فبإقدامٍ ممـزوجٍ بالـرِّقَّة، بالـصَّبر على التَّمنُّع، بالمواصلة بثباتٍ وبـلا خجَل، تُحَلُّ المشكلة، كما مُشكلة المرأة، كذلكَ مـشاكل الـسَّادة والأثـرياء وجـلِّ الـرِّجالِ عموماً، وكذا مشاكلُ الأمم والعصور. كما مع المرأة يُقاتَلُ المنافسون، ويُـضرَبُ حـولها طـوقٌ مـن العـزلة الغـيور، كذلك في العـالَم، مـن الـضَّروري طـرحُ المنافـسين والأصـحاب أرضاً، والعبور جهةَ الغاية فوق أجسادهم: ويُقاتلُ هؤلاء منافـسيهم بالأسـلحة نفـسها؛ اثـنان من بينهما أساسيَّان جـدَّاً، التَّلفيقُ والابتسام. مع المرأة ومع العالم، لا شيءَ أبـداً يُـنال، ولَهـوَ تعـيس الحـظِّ من يقعُ في حبٍّ لا هو زائـفٌ ولا فاتِـر، وكذلك مَن يفضِّلُ أحلامَه على نفْسه. والعـالَمُ هـو صورةٌ عن المرأة، يتسلَّى بمَن يقع في حبِّه برهةً، ثمَّ يمضي عابراً فوقه.

LXXVI

لا شيء أكثر ندرةً في العالم مِن امرئٍ يُحتَمَل.

LXXVII

يُنظَر إلى الصِّحَّةِ في العالم على أنَّها آخِرُ المتاع، وقليلةٌ هي في الحياة الأفعال والمبادرات المهمَّة، التي لا تكون مرتبةُ الصِّحَّةِ فيها، هذا إن كانت موجودةً أصلاً، مُلحَقَةً بمرتبةٍ أخرى. السَّبب يمكن أن يكون في جزءٍ منه، وليس في كُلِّيَّتِه، أنَّ الحياة هي في الأساس للأصحَّاء، الذين، مثلما هو الحال دائماً، إمَّا يتجاهلون وإمَّا لا يعتقدون بأنَّهم من الممكن أن يخسروا ما يملكونه. لِذكرِ مثالٍ من بين ألف، أنتَ تَرى كيف يقيمون العديد والعديد من المنشآت عندما يبنون لنا مدينةً جديدة، ولكنَّك قد لا تعثر أبداً على منشأةٍ واحدةٍ للصحَّة في مكانٍ سوف يعجُّ بعد قليلٍ بالأحياء. ومن الجهة المعاكسة، أنتَ لا ترى مكاناً على وجه الأرض غير صحِّيٍّ وبائس إلاَّ وترى النَّاس فيه يتأقلمون بجميع الوسائل الممكنة لأجل البقاء. ومكانٌ ما هو الآن صحيٌّ وغير مأهول، هو بعد قليلٍ مزدحمٌ ومُمرِض: كثيراً ما

تـرى الـسُّكّان يهجـرون المـدنَ والمُـناخات الـصِّحيَّة، ليقيموا تحتَ سماوات حامضيَّة، وفي أماكنَ ليست فقط غـير مُعافـاة، بـل ونـصفُ موبـوءة، سـعياً وراء الرَّغَد. لـندن، مدريـد، وكـثيرٌ مثلها، هي مدنٌ بظروف صحيَّة بائـسة، لكـن لأنَّهـا عواصـمُ، فكلُّ يومٍ ترى أمواجاً من الـزَّحف البـشريِّ نحوها، تاركةً وراءها الأقاليم الأخرى بمُـناخاتها الأكثر صحيَّةً. ولا نبتعد كثيراً عن بلدنا، فهنا في توسـكانا ليفورنو، وبسبب ازدهار التِّجارة فيها، فهي في نمـوٍّ سكّاني متواصل، أمَّا عند تخوم ليفورنو نفسها، بيزا، المكان المشهور بهوائه النَّقيِّ والعليل، والذي كان في الأمـس يعـجُّ بالحياة عندما كانت المدينة ذات أهميَّة بحـريَّة، تـرى الحـياة فيه الآن وقد تقلَّصت إلى ما يشبه الصَّحراء، وهي في كلِّ يومٍ تتبدَّد أكثر فأكثر.

LXXVIII

إذا كانَ شخصان أو ثلاثة مثلاً في مكانٍ عامٍ أو أيِّ مجلـس، غـارقين في الـضَّحك فـيما بينهم بطريقةٍ مثيرةٍ للاهـتمام، فـإنَّهم سـوفَ يـولِّدون في نفوسِ الحاضرين ذاك التَّوتُّر من أنَّ كلَّ حديثٍ بين هؤلاء قد يكون جدِّيّاً،

لهـذا تـرى أكثـرَهم يـصمت، البعض يغادر، أمَّا الأكثر جـرأةً فـيدنون مـن الضَّاحكين، مجرِّبين كلَّ طريقةٍ لكي يُقـبَلَ بهـم في حلقـة الـضَّحك تلـك. يبدو الأمرُ كأنَّهم سمعـوا فجـأةً أصـوات مدفعـيَّةٍ قـريبة وهم في الظَّلام، فتراهم يتفرَّقون بهلعٍ في كلِّ اتِّجاهٍ، لا يعرفون أين يمكن أن يـضعوا أقـدامهم فـيما لـو كانـت المدفعـيَّة مستعـدَّةً للإطـلاق. الـضَّحك يستـدرِجُ التَّقدير والاحترام حتَّى مـن الغـرباء، ويجـذب إلـيه انتـباه جمـيع الحاضـرين، ويحـيط الـضَّاحكين بمـثل هالـةٍ مـن التفوُّق. ولو أنَّكَ، وكمـا يحـدُث، وجـدتَ نفـسَك وأنـت في مكـانٍ مـا مُتجاهَلاً أو معامَلاً بأَنَفَة أو فَظاظة، فلن يكون أمامَكَ من سـبيلٍ سـوى أن تختار من بين الحضور واحداً يبدو لكَ الأنـسَب، ثمَّ تغـرق معـه بالـضَّحك بأريحـيَّةٍ وصـراحةٍ ومثابَرة، متظاهراً قدْرَ المستطاع بأنَّ الضَّحكةَ خارجةٌ من قلـبِك: بـل ربَّمـا لـو أنَّـك رأيـت الـبعض يأخـذونكَ أضحوكةً، لضحكتَ معهم بصوتٍ أكثر وضوحاً وأطول نَفَساً من أصواتهم هُم. ولعلَّك ستكون سيِّىء الحظِّ جدَّاً لـو أنَّ الهـازئين، وبـالأخصِّ أكثرهم غطرسةً وإزعاجاً، وأولئك الذين يشيحون عنكَ وجوهَهم، طلبوا منكَ وقد

رأوا ضعف ممانعتكَ، أو بقائك في مجلسهم بدلَ أن تولِّيهم دُبركَ، أو أنَّك لم تطلب منهم أن يدَعوك بسلام- أقول، ستكون تعيس الحظِّ لو أنَّهم، بعدَ هذا، اهتمُّوا بالحديث معك، وعرضوا عليك صداقتهم. حقّاً، جليلٌ هو الضَّحكُ للإنسان، وجليلٌ هوَ ذاك الرُّعبُ المنبعث من جبروت الضَّحك: هذا الذي قُبالتَهُ لا أحد مُحصَّنٌ بالمعرفة. من لديه شجاعة الضَّحك هو ملكٌ على العالم، مَن لا، هو يُعَدُّ للموت.

LXXIX

لن يعرفَ الشَّابُّ فنَّ المعيش، ولن، لِنَقُل هكذا، يحقِّق تألُّقاً باهراً في المجتمع، ويختبر بعضَ هذه المُتعة، ما دامتْ الرَّغبات ملتهبةً في نفسِه. بقدْرِ ما يبترد، بقدْرِ ما يصير أقدر على التَّعاطي مع نفسه ومع الآخرين. الطَّبيعة، تلطُّفاً، حكمتْ بأنَّ الإنسان لا يتعلَّم العيش إلاَّ بالتَّناسبِ مع زوال أسبابِ العيش. لا يكتشفُ الطَّريق المؤدِّية إلى غايته إلاَّ بالتَّوَقُّفِ عن اعتبار تلك الغاية مثل سعادة فردوسيَّة، لأنَّه عندما يحصل عليها سيرى كيف أنَّ الفرحَ بها ضئيل. وحكمتْ الطَّبيعة، أنَّ

الإنـسان لا يـستمتع إلاَّ عـندما يـصير عاجزاً أمام المتعة القويَّة. كثيرٌ من الشبَّان يبلغون هذا المكان الذي أتحدَّث عـنه، ولـيس قلـيلاً مـا ينجحون، لأنَّهم يرغبون بخفَّة، وذاكَ أنَّـه في الأصـل، تكـونُ حِقـبةُ الـرُّجولة مُعَـدَّاً لها بـتواطؤ التَّجـربة مـع الحَذاقة في نفوسِهم. الآخرون، لا يـبلغون أبداً في حياتِهم تلك البُلغة. أولئك تكونُ ضعيفةً في داخلـهم قوَّةُ المشاعر، أو قد تكون قويَّةً في البدء ثمَّ لا يُلبِـثها تقـدُّم الـسِّنين أن تتـبدَّد: ولـو كانـت الطَّبـيعة اختـزلتْ الحـياة إلى مـتعة، لكـان لهم، أكثر من جميع الآخرين، الحظُّ بالتمتُّع فيها. أمَّا هؤلاء، فعلى العكس، هم محزونون، وأطفالٌ حتَّى الموت في عالمٍ لا يفهمونه.

LXXX

هَلِعـتُ لمـرأى شخصٍ التقيته مصادفةً من جديد، وكـنتُ قد عرفته شابَّاً منذ سنوات قليلة، فللوهلة الأولى بـدا لي أنِّـي أنظـر إلى شـخصٍ أثقلـتْ عليه المِحَن. إنَّ مظهـرَ البهجة والثِّقة لا يبقى كما كان في الماضي: وهذا الـشُّعور بهمـا الـذي يتبدَّد، وذاك الرِّضا الجسدي الذي يتلاشى يوماً بعدِ يوم، حتَّى داخلَ أولئك المستهترين أو ذوي الطَّبيعة الفَكِهة، وكمثلهم أيضاً الأكثر سعادةً، ينشأ

مكانهما حجابٌ تعبيريٌّ مُبهَم، يُسمَّى بالوقار؛ هو حقّاً، إذا ما فوضِلَ بينه وبين أسارير شابٍّ أو طِفل، مثيرٌ للشفقة.

LXXXI

يحدُثُ في المحادثة مثلما يحدُثُ مع الكتَّاب: كثيرٌ منهم يكون لديه في البداية أفكارٌ جديدة ولونٌ خاصٌّ يثمِّنهما الكثيرون؛ ثمَّ، شيئاً فشيئاً، وكتاباً إثر كتاب، يُصاب القارئ بالسَّأم، لأنَّ جزءاً من كتاباتهم هو تقليدٌ للجزء الآخر. هكذا في المحادثة، الأشخاص الجُدد هم غالباً مرغوبون ومقدَّرون لمواضيعهم وأسلوبهم في الكلام، لكن هم أيضاً يصبحون مملِّين مع الاعتياد ويسقطون من التَّقدير: لأنَّ النَّاس، وبحكم الضَّرورة، بعضهم أكثر وبعضهم أقل، عندما لا يقلِّدون الآخرين، يقلِّدون أنفسهم. أمَّا أولئك كثيرو السَّفَر، وبالأخصِّ إذا كانوا أشخاصاً حاذقين ضالعين في فنِّ الحديث، فإنَّهم يتركون بسهولةٍ، في الأماكن التي يمرُّون بها، انطباعاً عن أنفسِهم يفوق الحقيقة بكثير، نظراً لهذه الفرصة التي تمكِّنهم من إخفاء تلك النَّقيصة الطَّبيعية في الرُّوح: الفقْر. زِد على ذلك، أنَّ ذاك الكثير

الـذي يكشفونه للآخرين في مناسبةٍ واحدة أو مناسبتين، مـتحدِّثين بـشكلٍ رئـيسٍ عـن أنفـسِهم وعن الأمور التي تـتعلَّق بهـم، محمولين على ذلك، وبلا أيِّ تصنُّع، من كِياسـةِ وفـضول الآخرين- ذاك الكثير، لا يُنظر إليه بأنَّه تمـام الغِنى في نفوسهم، بل بأنَّه قدْرٌ ضئيلٌ من ذاك، أو لِـنقُل هكـذا، عملةٌ نقديَّةٌ صغيرة في بحر ثرائهم الهائل. هـذا الاعـتقاد يظـلُّ راسـخاً، لأنَّـه لن يكون ثمَّةَ مناسبةٌ جديـدة لتهُـزَّه. وللأسباب نفسها، ومن الجهة المقابلة، يقـعُ أولاء المـسافرون بالخطـأ ذاتِـه، إذ يقـيِّمون بأعلى بكثيرٍ من حقيقته الشَّخصَ الذي قد تجمعهم به المناسبة.

LXXXII

لا أحـد يمكن أن يصير إنساناً قبلَ أن يكوِّنَ معرفةً عـن نفـسِه، وهـذه يُعرِّفُها هو نفسُه لنفسِه، وبمجرَّد أن يعـيِّنَ علـى أساسـها انطـباعَه الـذَّاتيَّ حـولَ نفـسِه، فإنَّه يستطيع بمعنىً ما أن يعيِّنَ مصيره ومكانه في الحياة. هذه المعـرفة العظـيمة، الـتي ما مِن أحدٍ في العالم يمكن أن يأخـذ مـنها أكثر ممَّا قد يأخذه طفلٌ صغير، كان يمنحُها المعـيش القـديم مـادَّةً جاهـزة ولا نهائـيَّة: أمَّـا الـيوم،

فمعـيشُ الفـرد يفتقـر إلى الإمكانـيَّات، وفي كلِّ أصقاع العـالم، وبـسبب فقـدان تلـك الفرص، كثيرٌ من النَّاس يموتون قبل تحصيل المعرفة التي أتحدَّث عنها، وهم لا زالـوا في طفولةٍ ذهنيَّة هي أقرب إلى لو أنَّهم لم يولَدوا. بالنـسبة لآخـرين، فـتلك المعـرفة وامتلاك النَّفس يأتيان عـادَةً إمَّـا من الحاجات والمحَن، وإمَّا من عاطفة قويَّة، أي جارفـة؛ وغالباً من الحُبِّ، حين يكون الحبُّ عاطفةً جارفـة؛ هـذا شـيءٌ لا يحدثُ للجميع مثلما يحدث مع المحـبَّة. لكن ما أن يحدُث، سواء في مقتبل العمر، كما بالنـسبة للـبعض، أو متأخـراً قلـيلاً وبعـدَ قـصص حبٍّ أخرى قليلة الأهميَّة كتلك التي تحدث في أغلب المرَّات وتحديـداً عـند الخروج من علاقةٍ جارفة ومؤلمة- يكون الإنـسان قـد عرف الآن وعلى نحوٍ متوسِّط أبناءَ جنسه، ذاك أنَّـه أفادَ من ذاك التَّداني المرافق للرغبات المُستهامة وللحاجاتِ العنيفة غير المُشبَعة ربَّما من قبل؛ ويكون قد عـرفَ عـن خـبرةٍ طبـيعةَ العواطـف، هـذه التي بمجرَّد اجتراء واحدةٍ منها تتلهَّبُ البقيَّةُ جمعاء؛ ويتعرَّفُ كذلك طبـيعة نفـسه ومـزاجاتها؛ يتعرَّفُ حجم مقدرتها ومقدارَ قـوَّتها؛ وهكذا يكون بمقدوره الآن أن يحكمَ على نفسهِ

بالـيأسِ أو بالأمل حيالَ ما يمكن فعلُه لأجل المستقبل، لأجل المكان الذي يوجِّهه إليه مصيرُه في هذا العالم. في الـنِّهاية، فـإنَّ للحياة في عينيه صورةً أخرى؛ لقد تبدَّلت مـن شـيءٍ مـسموعٍ إلى مرئيٍّ، ومن مُتخيَّلٍ إلى مُعاش؛ وهـو يـشعرُ الآن بأنَّـه في مركزِها، ربَّما لم يُعد سعيداً، ولكنَّه في أيَّة حال أقوى من قبل، أعني أكثر معرفةً بنفسهِ وبالآخرين.

LXXXIII

لـو أنَّ تلك القلَّة ذات البسالة الحقيقيَّة من الرِّجال الباحـثين عـن المجـد، أدركـتْ أنَّهـا هـي الـتي ألَّفـتْ وشـكَّلتْ الشَّعب الذي تُذيقه كلَّ صنوف العذاب لتكون مَهُـوبةً عـندَه، لكـان من المعقول أن تهدِّئَ من نفسِها، وربَّمـا قـد تقلـع عـن الأمر من أساسه. كلُّ القضيَّة، أنَّ أرواحنا عاجزةٌ عن انتزاع نفسِها من القوَّة التي يملكها في المخيِّلة عددُ البشر: ونحنُ في مرَّاتٍ لا تُحصى نُعجَب، بـل ونُجِـلُّ، لـن أقـول جمهـوراً غفـيراً، ولكـن عشرة أشـخاصٍ مجـتمعين في غرفة، ولا يعني لنا واحدٌ منهم شيئاً.

LXXXIV

يسوع المسيح كان أوَّل من أشار بإصبعه بجلاءٍ نحوَ ذاكَ المُمَدِّحُ والمعلِّمُ لجميع القِيَم الباطلة، بأنَّه قَدَّاحٌ ومُفترٍ على جميع تلك الحقَّة، ذاكَ المُعارِض لكلِّ عظمةٍ أصليَّةٍ وجوهريَّةٍ في الإنسان، الهازئُ بكلِّ شعورٍ فائق، إذا لم يبدُ له زائفاً، وبكلِّ عاطفةٍ وَدود، إذا بدت له حميمة، ذاكَ العبدُ للأقوياء، المستبدُّ بالضعفاء، المُبغضُ للمحزونين، الذي سمَّاه يسوع المسيح: العالم، واسمُه موجودٌ في كلِّ اللغات، إلى هذه اللحظة. هذه الفكرة العامَّة، التي هي جدٌّ صادقة، والتي كانت وسوف تكون دائماً واقعيَّة، لا أعتقد أنَّه بعد ذلك الوقت قد جاء آخرون بمثلها، ولا أذكر أنَّها موجودةٌ، وأقصدُ بالقول بمثل تلك الفرادة في المعنى وتلك الدِّقَّة في الشَّكل، عندَ أيِّ فيلسوفٍ رفيع المستوى. ربَّما لأنَّه ومنذ ذلك الوقت، لم يبلغ الجبنُ والتَّضليل بعدُ غُلمَتَهما، ولم تبلغ الحضارةُ تلك الرُّتبة حيثُ تضعُ الجزءَ الأعظمَ ممَّا لها مكانَ ما للفساد.

هذا هو إذن ما أقول، وهذا هو من عناهُ يسوع المسيح، إنَّه الإنسانُ الذي اسمُهُ الحضارة: الذي لا

المـنطق ولا العقـل يكـشفان أسـراره، والكـتبُ والفـنُّ يفـضحانه، والطَّبـيعة تـسمِّيه الخـرافيَّ، والـذي وحدها معرفةُ الحياة تعترف به، وتدعوه الحقيقيَّ. وما مِن فكرةٍ مـثل هذه شموليَّة، ويمكن أن تكون مُقنعةً في كلِّ حرفٍ فيها لعددٍ لا يُحصى من النَّاس.

LXXXV

عند الكتَّاب الملحدين: عموميَّة الإنسان المتمدِّن، والـتي ندعـوها بالمجـتمع أو بالعـالم، لـن تجـدها أبداً معتبَرةً أو معروضةً على أنَّها عدوٌّ للخير، ولا أيضاً على أنَّهـا إفـسادٌ مؤكَّدٌ لكلِّ نزعة حميدة، وكلِّ نفْسٍ مطلوقةٍ علـى الاستقامة. «العالمُ عدوٌّ الخير»، هي محضُ فكرةٍ، بقـدرِ ما يُتغنَّى فيها في الأسفار الإنجيليَّة، وعند الكتاب الحديـثين، حتَّـى الجَهَلـة منهم، بقدرِ ما كانت مجهولةً عـند القدماء. ولهذا، فلنْ يدهَشَ مَن سوفَ يعتبر كلمتي حقـيقةً جليَّةً وبسيطة، الكلمة التي يمكن أن تصلحَ مرآةً لكـلِّ مـن يرغب بالمفاضلةِ بين القديم والحديث، وهي أنَّـه: في حين أنَّ المربِّين الحديثين يخافون الشَّعب، كان القدماء يبحثون عنه؛ وفي حين أنَّ الحديثين يجعلون من

الظَّـلام البَـيتي، من العَزلِ والمُعتزَل، وِقايةً للشبَّان ضدَّ وبـاء العـادات الدَّارجـة، كان القدماء يُطلقون الشَّباب، وحتَّـى بالقوَّة، من العزلة، ويضعون حياته وأفكاره أمام مـرأى العالم، والعالمَ أمام مرآه، مقدِّمين المثال الفعليَّ على التَّوجيه بدلَ التَّحريف.

LXXXVI

الـسَّبيل الأضـمن لتخفـي عـن الآخـرين حـدود علمِك، هو ألاَّ تتخطَّاها.

LXXXVII

مـن يـسافر كـثيراً، يملـكُ هـذه الأفـضليَّة علـى الآخـرين، أنَّ مواضيع ذاكرته سرعان ما تصبحُ بعيدةً، ذاكَ أنَّهـا تتوشَّح بذلك الغموض وتلك الشِّعريَّة، اللذَين لا يُعطـيهما للآخـرين غـيرُ الزَّمن. من لم يسافِر مطلقاً، يملُـك هذه السَّيِّئة، أنَّ جميع مواضيع ذاكرته حاضرةٌ في مكانٍ ما حولَه، ذاكَ أنَّها حاضرةٌ الأماكن التي كلُّ ذكرىً من ذكرياته تُحيلُه إليها.

LXXXVIII

ليس أمراً نادر الحدوث أنَّ الشَّخص الفارغَ، المليءَ بأفكار تدور كلُّها حول نفسه، بدلَ أن يكون أنانيَّاً وجافَّ الرُّوح، كما يحدث في الأرجح، تراهُ رقيقاً طيِّباً رفيقاً صالحاً، بل وصديقاً خدوماً جدَّاً. ولأنَّه يعتقد بأنَّه محبوبٌ من الجميع، فإنَّه لا يملك غير أن يحبَّ مُحبِّيه، ويساعدهم أنَّى استطاع، لأنَّه يحسب أنَّهم مؤمنون بأنَّ القَدَرَ قد اختاره لأجل أن يخلِّصهم. يحادث بطيبة خاطر، مؤمناً بأنَّ العالم مليءٌ باسمِه، ويتصرَّف بإنسانيَّةٍ مادحاً في أعماقه هذه النَّبالة، وهذه المعرفة في تسخير عظَمَته الشَّخصيَّة لخدمة الضُّعفاء. وقد لاحظتُ أنَّ هذا الانطباع الذي يكبر في نفسِه، يكبرُ بالفطرة. وفي النِّهاية فإنَّ هذه الثِّقة التي لديه عن أهميَّته الخاصَّة، وعن رأي الجنس البشريِّ الذي يؤكِّد عليها، تنزع من سلوكه كلَّ مظاهر القسوة، لأنَّه ما مِن شخصٍ قد يكون راضياً بنفسِه وبالآخرين وتراه في الوقت نفسِه فظَّ المشاعر؛ كما تولِّد هذه الثِّقة فيه تلك السَّكينة، التي تجعله يبدو أحياناً بمنظرِ الأشخاص المتَّضعين.

LXXXIX

القليلُ الإلْف بالبشر، نادراً ما يكون كارهاً لهم. الكارهون الحقيقيُّون لا يوجدون في المُعتزَل، بل في العالم: ذاك أنَّ الواقعَ العمليَّ للحياة، وليس للفلسفة، هو ما يحملُ على كراهية البشر. ولو أنَّ واحداً من الكارهين للبشريَّة تعزَّل بنفسِه عن النَّاس، لخسرَ بتلك العزلةِ تلكَ الكراهيَّةَ.

XC

عرفتُ واحداً من الأطفال، كانَ كلَّما عُورضَ في أمرٍ من قِبَل والدته، يقول: *أه، فهمتُ، أمِّي سيئة*. ليسَ عبرَ منطقٍ آخَر يناقشُ أغلب النَّاسِ بعضهم بعضاً، كما لو أنَّه ما مِن طريقةٍ أبسط من هذه يجدونها ليعبِّروا عن رأيهم.

XCI

إذا كنتَ في وارد تقديم نفسِكَ إلى أحدهم، وأردت أنَّ تزكيتك الذَّاتيَّة قد يكون لها وَقعٌ، فلتدع جانباً محاسنكَ الأكثر واقعيَّةً وجوهريَّة، ولتُخبِر بتلك الأكثر ظاهريَّةً ولُصوقاً بالحظِّ. فإذا كنتَ عظيماً ومقتدراً بين النَّاس، لِتقُل بأنَّكَ عظيمٌ ومقتدر. إذا كنتَ ثريّاً،

لتَقُل بأنَّك ثريٌّ. وإذا كنت نبيلاً فحسب، لِتَقُل نبيلاً: ولا تَقُل شهماً ولا عفيفاً ولا فاضلاً ولا مُحبّاً ولا أيَّ شيءٍ مماثلٍ من صفاتٍ حقيقيَّة ورفيعة لو أحببت الإضافة. أمَّا إذا كنتَ أديباً مشهوراً ويُحتفى بشخصِكَ في أحد الأمكنة فلا تقُل بأنَّك مثقَّفٌ ولا عميقٌ ولا عبقريٌّ ولا عظيمٌ ولكن قُل: مشهورٌ؛ لأنَّه، وكما قلتُ في مكانٍ آخر، الحظُّ محظوظٌ في العالم، وليسَ القيمة.

XCII

يقول جان جاك روسُّو إنَّ اللُطف الحقيقيَّ يكمن في الظهور بمظهر التَّسامح. هذا اللُطف قد يقيكَ من الكراهية، ولكنَّه لا يجيء لكَ بالحُبِّ، سوى ربَّما ذاك الحُبُّ الضئيلُ من أولئك الذين يكون تسامحكَ معهم استحثاثٌ لهم على الرَّدِّ بالمِثل. من يريدُ، وبحسب مؤاتاة الظُّروف، أن يجعل من النَّاس أصدقاءً، بل وعشَّاقاً له، فما عليه سوى أن يُثبتَ لهم التَّقدير. فمثلما التَّحقيرُ مؤذٍ ومكروهٌ أكثر من الكراهية، فكذلك التَّقديرُ مرغوبٌ ومحبوبٌ أكثر من التَّسامح. وعموماً، فعند النَّاس اهتمامٌ أكبر، أو بالأحرى رغبةٌ أكبر، في أن

يكونـوا مُقدَّرين من أن يكونوا محبوبين. ودائماً تقريباً ما يلقى إثباتُ التَّقدير، سواء كانَ صادقاً أو زائفاً (في جميع الحالات يصدِّقه من يتلقَّاه)، عرفاناً بالجميل: وكُثْرٌ ممَّن لا يحـركّون أصبعاً في خدمـة مـن يحـبِّهم حبَّاً حقيقيَّاً، تـراهم يقذفـون بأنفـسِهم إلى الـنَّار لأجـلِ من قد يومئ بالتقديـرِ لهـم. إثـباتُ التَّقدير هذا جدٌّ فعَّال في مُصالحة المُـساءِ إليهم، فكما يبدو، الطَّبيعةُ لا تسمحُ لنا بكراهيَّة شـخصٍ يقـول إنَّـه يقدِّرنا؛ فيما ليس فقط من الممكن، بـل هـذا ما نراه في أغلب الأحيان، يكره الإنسانُ وينفرُ ممَّـن يحـبُّه، بـل وممَّـن يأتـيه بالـنَّفع. فإذا كان فنٌّ أسْرِ القلـوب كـامنٌ في جعـلِ الآخـرين يغادرونـنا وهم أكثر سـعادةً ممَّـا جاؤونـا، مـن الجليِّ أنَّ إيمـاءات التَّقديـر سـتكون أكثـر فعالـيَّةً في ذلـك مـن إيمـاءات التَّسامح. وعـندما يكـون التَّقديـر أقـلَّ استحقاقاً للشَّخص، يكون إظهارُه له أكثر تأثيراً فيه. ومثل هؤلاء المعتادين على هذا الـنَّوع من اللُّطف مع الآخرين، هم لا يُلاطَفون بدورهم بأقـلَّ من ذلك، بل قد يصل الأمرُ حدَّ المُغازلة، ويكون الحال مثل حال الذُّباب المجتمع على العسل، إذ تراهم يتنافـسون علـى تقديـر الـنَّاس طلباً لِلذَّة أن يروا أنفسَهم مُقدَّرين. وغالباً ما يبالغ هؤلاء في المديح: لأنَّه بالمديح

الـذي يمـنحونه لكـلِّ مـن حـولهم تـتولَّد سـعادتُهم من المديح الذي يمنحه كلٌّ من حولهم لهم، البعضُ امتناناً، والـبعضُ إرضـاءً للغـرور بأنَّنا ننال المدْحَ والتَّقدير ممَّن هُـم ممدوحـون وقديـرون. هكـذا، ومـن دون إدراك، وربَّمـا بعكـس إرادتهم، لا يفعلُ النَّاس، عندما يغمرون بالتَّبجـيل والإطـراء مـثلَ هؤلاء، غيرَ أنَّهم يرفعونهم في المجتمع أعلى من أنفسِهم، فيما يستمرُّون هم في التَّقافز فوقَ الدَّرجات الأدنى.

XCIII

أكثـرُ، أقـصد حوالي جميع النَّاس الذين يعتقدون بـأنَّهم مقـدَّرون في المجـتمع، سواء من أنفسِهم أو من الآخرين، هم في الحقيقة لا يملكون من التَّقدير غيرَ ذاك المحـصور بـصُحبةٍ مـا، أو بطـبقةٍ مـا، أو بفـئةٍ مـا من الأشـخاص، الـتي ينتمون إليها ويعيشون ضمن نطاقها. رجـلُ الأدب، الـذي يعـتقد بأنَّـه مـشهورٌ ومُحتـرَمٌ في العـالم، يجـدُ نفسَه إمَّا مهجوراً من طرفٍ، أو مهزوءاً به في كلِّ مرَّةٍ قد يقعُ فيها في صُحبةِ أناسٍ فارغين، والذين يـشكِّلون ثلاثة أرباع العالم. الشَّابُّ الأنيق، الذي يُحتفى

به بين النِّساء وبين أقرانه، يبقى وضعه مُهمَلاً وغائماً في مجتمع رجال الأعمال. المُستشار الذي يغمره زملاؤه وتابعيه بكلِّ التَّشريفات المُتخيَّلة، غالباً ما يُقابَلُ من النَّاسِ بابتسامة أو بالغروب عن طريقه. أخلُصُ إلى أنَّ على الإنسان ألاَّ يصبو إلى تحصيل التَّقدير من المجتمع بأكمله، ولكن فقط من عددٍ قليلٍ من الأشخاص. أمَّا مِن البقيَّة، فعليه أن يرضى بأن يكون مرَّةً مجهولاً تماماً، ومرَّةً مُستخَفّاً به، ذاكَ أنَّه ما مِن احتمالٍ آخَر.

XCIV

من لم يغادر أبداً الأمكنة الصَّغيرة، حيثُ تسودُ المطامحُ المُبتذلَة والجَشَعُ العامِّيُّ، سويَّةً مع الكراهية المكثَّفة لكلِّ واحدٍ ضدَّ الآخَر، يبدو له الحديث عن النَّقائص الكُبرى مثلِ خُرافة. هكذا تبدو في المجتمعِ المَحامِدُ الجوهريَّةُ والثَّابتة. وبالأخصِّ الصَّداقة، تظنُّها شيئاً ينتسبُ إلى القصائدِ والحكايا، لا إلى الحياة. محضُ تضليلٍ. دعكَ من الأساطير، الأصدقاء الرَّائعون والمخلصون موجودون حقّاً في العالم، وليسوا بِقِلٍّ. العونُ الذي تنتظره وترجوه من

هـؤلاء الأصدقاء، أعني الذين هم هبَةٌ من العالم، يكون إمَّـا كلمـةً، هي غالباً ما تكون كافية وشافية، وإمَّا فعلاً: مالٌ مثلاً، وهذا فيما نَدَر. والإنسانُ الحكيم والمُتبصِّر لا يـسألُ الفعلَ. مهما يكُن، فثمَّةَ مَن، وبكلِّ طيبِ خاطرٍ، ولأجـل دخـيلٍ مـا، يخاطرُ بحياته التي ثمَّة على الطرف المقابل مَن، لن أقول «يَهَبُ»، ولكن «يَضَعُ» حياته وقاءً لها.

XCV

ليسَ الإنسانُ بلا عُذرٍ في هذا: لأنَّه نادرٌ ذاك الذي يملكُ حقَّاً أكثر ممَّا يحتاج، وهذا أنَّ الحاجةَ تجيءُ أصلاً مـن الوَلَع، والرَّغبةَ تتناسبُ أساساً مع الثَّروة، وكثيراً ما تـتجاوزها. وهـؤلاء القِلُّ الذين يكنزون دون أن يُنفِقوا، لـديهم هـذه الحاجـةُ إلى الكَنْـز. إمَّـا محـضُ نزعةٍ، أو لضروراتٍ ومخاوف مستقبليَّة. وليس من الواردِ أن تكون هـذه الحاجة أو تلك تخييليَّةً، لأنَّها قليلةٌ جداً في الحياة الأشياء التي لا تكمن، جُلُّها أو مجملُها، في الخيال.

XCVI

الـرَّجُل الـصَّالحُ، مع تقدُّم السِّنين، يصيرُ بسهولة عـديم التَّأثُّر بالمديح والتَّشريف، لكن لا يفقدُ أبداً، كما أعتقد، تأثُّرَه بالتَّحقير والتَّوبيخ. أكثر من ذلك، فالإطراء والتَّقديـر اللذان قد يأتيانه من أشخاصٍ في مُنتهى الرِّفعة ليسا كفيلَين بالتَّعويض عن الألم الذي تسبِّبه له أيَّ إيماءةِ أو إشـارةِ إهمـالٍ قـد تأتيه من شخصٍ في منتهى الضِّعة. لعلَّ العكسَ يحصلُ مع الطَّالح، فبأنَّه معتادٌ على التَّحقير ولـيس معـتاداً علـى التَّقدير، يصيرُ عديم التَّأثُّرِ بالأوَّل، سـريع التَّأثُّـر بالـثَّاني، ما لَم يمسَسه بالمصادفة مَسٌّ مِنَ الحكمة.

XCVII

لهـذا سِـمَـةُ التَّـناقـض الظَّـاهـريِّ، لكـــن مـع المعـرفة بالحياة يُكتـشَفُ بأنَّـه حقيقـيٌّ وجوهـريّ، أنَّ أولـئك الأشخـاص الذين يسمِّيهم الفرنسيُّون بالأصليين [المُبتكَـرين]، هم ليسوا فقط غير قِلة في الحياة، بل هم شـائعون إلى درجـةٍ أقول معها إنَّ الشيء الأكثر ندرةً في المجـتمع هـو أن تـصادفَ شخـصاً ليس، كما يسمُّون، أصـليَّاً. مـا أتحـدَّث عـنه هـو تلك الفروق الصَّغيرة بين

إنسانٍ وآخَر: أتحدَّث عن الطَّبيعة والطَّبع اللذَين يعيِّنان شخصيَّة المرء، ويبدوان للآخرين غريبَين وشاذَّين ومُضحِكَين: قليلةٌ هي المرآت التي، بعدَ فترةٍ طويلة من عِشرتك مع شخصٍ مهما يكن متحضِّراً، لا يحدثُ فيها أن تكتشف في طِباعه أكثرَ مِن غرابةٍ أو سخافةٍ أو خروجٍ عن المألوف، وغيرها من الأشياء التي تثيرُ اندهاشك.

هذا اكتشافٌ تبلغه في وقتٍ أبكَر مع الآخرين فيما مع الفرنسيين، وربَّما بأبكر من ذلك مع الأشخاص النَّاضجين والمسنِّين ممَّا مع الشبَّان، لأنَّ هؤلاء كثيراً ما يضعون طموحهم في إثبات أنفسهم للآخرين، وإذا كانوا فوق ذلك جيِّدي التَّربية فإنَّهم يتملَّكون نزواتهم بقوَّة أكبر. ولكن، مهما يكُن، أبكَر أو أرجأ، في النَّهاية سوف تكتشف هذه الحقيقة في جميع أولئك الذين تعاشرهم. حقَّاً، الطَّبيعة متنوِّعة، وفي غاية المستحيل على الحضارة، هذه التي تطمحُ إلى التَّبسيط والتَّماثل، أن تنتصر في الآخرِ على الطَّبيعة.

XCVIII

شبيهةٌ بالملاحظةِ السَّابقةِ التَّاليةُ، أنَّ كلَّ من سبَقَ له وأن خالطَ النَّاس أو كان له معهم شأنٌ، لو أنَّه أعملَ ذهنَه قليلاً، لانتبَهَ إلى أنَّه قد كان في كثيرٍ من المرَّات مُتفرِّجاً، أو ربَّما، لِنَقُل، جزءاً من مشهدٍ واقعيٍّ لا يختلف في شيءٍ عن تلك التي تُشاهَدُ في المسارح، أو تُقرأ في كتب الكوميديات الهزليَّة أو في الرِّوايات، ونحسبُها نحنُ من تخاييل ما وراء الطَّبيعة لتلبُّسها لُبْسَ الفنِّ. الشَّيءُ نفسُه لا يعني شيئاً، غيرَ أنَّ السُّوء، والحماقةَ، والنَّواقص من كلِّ جنسٍ ولون، والطَّبيعةَ والطَّبعَ السَّخيفين للنَّاس، هي اعتياديَّةٌ أكثر بكثير من أن نعتقد بمعقوليَّة استبدال العاديِّ بتلك الإشارات التي تُحيلُها افتراضاتنا إلى التَّطرُّف.

XCIX

لا يكون الإنسانُ سخيفاً إلاَّ عندما يريد أن يبدو أو يكون غيرَ ما هو كائن. الفقير، الجاهل، القرويُّ، المريض، العجوز، هم ليسوا أبداً بسخيفين عندما

يكونـون راضـين بكـونهم مـا هم كائنيه، وقانعين بالبقاء داخـل الحـدود الـتي شـاءتها الطَّبـيعة لهـم؛ ولكـن يـا للخفَّـة، عـندما يـريدُ العجـوز أن يـبدو شابَّاً، المريضُ مُـصِحَّاً، الفقير غنيَّاً، السَّاذجُ جامعيَّاً، والقرويُّ متمدِّناً. العـيوب الجـسديَّةُ نفـسُها، ومهما تكُن قاسية، لا تُفسِدُ رقَّـة ابتـسامةٍ قد تَعبُر، فيما لو أنَّ الإنسانَ لم يجهد على إخفـاء عـيوبه، أي فـيما لـو أنَّـه لم يُرِد أن يبدو كأنَّه لا يملكها، ومثلُه القول: فيما لو أنَّه لم يُرد أن يكون مختلفاً عمَّـا هو كائنُه. مَن يتبصَّر جيِّداً، يدركُ أنَّ عيوبنا وآلامنا ليـست هـي المـثيرة للسُّخرية، ولكن الجهد الذي نبذله لإخفائها، وإرادتنا أن نتصرَّفَ كما لو أنَّها ليست لنا.

أولـئك الـذين لأجـل أن يكونوا محبوبين ينتحلون صفةً معنويَّةً مختلفة عن حقيقتهم، يُخطؤون خطأً كبيراً. التَّـصنُّع الـذي بعـد فتـرةٍ وجيـزة تـضعفُ القـدرة علـى المُداومـة علـيه، يـصيرُ جلـيَّاً، ومُعارضةُ الصِّفة الزَّائفة للحقيقـيَّة تتقهقر أمام التَّكشُّف والتَّشفُّف المستمرِّ لهذه، فيمـسي الـشَّخص مكروهاً ملوماً محسوراً بأنَّه لم يعرض حقيقته كما هي بجلاء ومنذ البداية. أيَّة صفةٍ مهما بلغت مـن الـبؤس، يكمـنُ فـيها جانـبٌ جمـيل، ولأنَّه جانبٌ

جوهـريٌّ وصادق، فإنَّه عندما لا يُحَجَّب، يكونُ جديراً بالحبِّ أكثر من أيِّ جمالٍ آخَر زائف.

وعموماً، إرادتنا أن نكون ما ليس نحنُ، تُهدِّم كلَّ شيءٍ في العالم: وليس لأيِّ سببٍ آخَر غير هذا يصيرون غيرَ محتمَلين بعضُ الأشخاص الذين كانوا ليُعشَقوا فقط لـو أنَّهـم رضـوا بكينونـتهم. ليس فقط أشخاص، ولكن فـئات، بـل وشعوب كاملة: وأنا أعرف العديد من مدن المقاطعـات المزدهـرة والمـثقَّفة، والـتي كـان ليُستَحبَّ كـثيراً العـيشُ فـيها، لولا أنَّها تقليدٌ جدٌّ بشعٌ للعواصم، أي لـولا إرادتهـا أن تكـونَ غيرَ ما هي كائنةٌ عليه، وقبلَ كلِّ شيء أن تكونَ مدن عواصم لا مدن مقاطعات.

C

بالعـودة إلى العـيوب والخـسارات الـتي قد تلحق بأحدنا، لا أنكر أنَّ العالم في كثيرٍ من الأحيان ليس مثل أولـئك القـضاة الذين يُحرَّم عليهم، بحسب القانون، أن يديـنوا الجـاني، حتَّى ولو كانوا متأكِّدين من جنايته، ما لَـم يـصدُر عـنه هـو نفـسُه اعتـرافٌ شـفاهيٌّ بالجـريمة. وطـبعاً، ليس لهذا السَّبب هو إخفاء العيوب الشَّخصيَّة،

بإجهادٍ ظاهريٍّ، مبعثاً للسُّخرية؛ إنَّني لأطري على أولئك الذين يأتي اعترافهم عفويّاً، وأقلَّ من ذلك على مَن قد يقول أكثر من الحقيقة بقصد أن يبقي نفسَه، تعاطفاً مع أولئك، في مكانٍ ما أدنى من الآخَرين. لكنَّ الأمر ليس بطبيعة الحال مدعاةً لكي يدين الإنسانُ نفسَه بذلك الحُكم النِّهائي، ذاكَ أنَّه، ما دامت رأسُه مرفوعة، فإنَّ العالم لن يمنحه الحُكمَ إيَّاه أبداً. في قلب هذا الاصطراع لكلِّ واحدٍ ضدَّ الجميع، وللجميع ضدَّ كلِّ واحد، هُنا، لو أردنا تسمية الأشياء بمسميَّاتها، تكمنُ الحياة المجتمعيَّة؛ وفي هذا الكفاح ضدَّ الشَّريك في سبيل البقاء على قدمٍ ثابتة، يُخطئُ كثيراً من قد يخضع، وكذلك من قد ينحني، بل ومن قد يحني هامتَه ولو تلقائيّاً: لأنَّه ومن دون أدنى شكٍّ (باستثناء لو أنَّه كان يتظاهر بذلك، كحيلة قتاليَّة مثلاً) سرعان ما سوفَ يؤخذ من ظهرِه ويُطرح أرضاً، بلا أيَّة رأفة أو رحمة من العالم. هذا الخطأ يقترفه الشُّبَّان دائماً تقريباً، وغالباً عندما يكونون لطيفي الطِّباع: أعني اعترافهم بين فينةٍ وأخرى، وبلا ضرورة وخارج السِّياق، بعيوبهم ونواقصهم، مُنساقين بنزعة الصَّراحة التي هي سمةٌ أساسيَّةٌ لذلك

العُمر، وبسببها يكرهون التَّظاهر والادِّعاء، مأخوذين بسعادة الاعتراف، حتَّى ضدَّ أنفسِهم، بالحقيقيِّ. جزئيّاً لأنَّ ما هم عليه من سخاءٍ، يجعلهم يعتقدون بأنَّهم سوف يُمنَحون، مقابل ذلك، التَّسامحَ والغُفرانَ من العالم على نواقصهم. وتبتعد كثيراً عن حقيقة الإنسان تلك الحقبة الذَّهبيَّة من الحياة، هذا أنَّهم يرفعون الحجاب عن جوهر الحزن، ظنّاً منهم أنَّ الحزن يجمِّلهم ويُكسبهم النُّفوس. ولا شيء، لِنَقُل الحقيقة، يصيبُ المنطق أفضلَ من هذا الظَّنِّ، ووحدها فقط المعرفة الطَّويلة والمتواصلة بالذَّات تحملُ صاحبها اللطيف النَّفس على الاعتقاد بأنَّ العالم يغفرُ بسهولةٍ كلَّ ما قد يعيبُه. إنَّ السِّرَّ هو ليس الحزن في حدِّ ذاته، غيرَ أنَّ الحظَّ محظوظٌ، ولكن، ولا في هذا كذلكَ يكمنُ السِّرُّ؛ هو يكمنُ دائماً هنا، في رفع الحجابِ عن الحزن كلَّما أمكن، وحتَّى ضدَّ الحقيقيِّ نفسه. في أنَّ الاعتراف بمثالب الذَّات لا يولِّد رحمةً بلِ لذَّة، لا يُحزِن بل يُفرِح، لا الأعداء فحسب بل كلَّ من قد يسمعُه، ذاك أنَّه أشبه بوثيقةٍ على دونيَّة الأنا وتفوُّق الآخَر. لكن بما أنَّ الإنسان المطروح أرضاً لا يمكنه سوى أن يتَّكل على

قـواه، حـيث لا هـو قـادرٌ على مفارقة نفسِه، ولا حتَّى علـى الـرُّجوع خطـوةً واحـدة بإرادته، تراه يستميتُ في المقاومة، ويقاتل بما بقي من قواه المُستَنفَدة لأجل حِفظِ أو نـيلٍ، وحتَّى بالرَّغمِ من الحظِّ، ذلك الشيء الذي لن يـؤتاه لا مـن سخاء النِّدِّ ولا من سخاء الإنسانيَّة جمعاء. بالنـسبة لي، أعـتقد بأنَّـه ليس على المرء أن يتألَّم إذا ما سُـمِّي، في محـضَرٍ مـنه، حزيناً أو شقيّاً: فهذه الصفات كانـت في جمـيع اللغـات تقـريباً، ولا زالت، مرادفاتٍ لمخـتلف معـاني الـسُّوء، وربَّما لمحض خرافاتٍ قديمة قـد يكـون الحـزنُ معنىً للشَّرِّ، ولكن من المؤكَّد، وفي جمـيع اللغـات، أنَّـه يعـرفُ، وسوفَ يعرفُ دائماً، بينه وبين نفسِه بأنَّه جائرٌ كلُّ مَن يُحيلُ تلك الصفات إلى تلك المعـاني، ولأيِّ غايـةٍ كانـت، هـذا أنَّـه لا يفعل ذلك، أصـلاً، إلاَّ لـشعوره بأنَّـه يـرفعُ بهـذا نفـسَه ويخفِّـضُ الآخرين، ذاتُ الشيء الذي يشعرُ بهِ من يسمَع.

CI

بالاعتـراف بمـساوئ الـذَّات، حتَّـى الجليَّة منها، يدمِّـرُ الإنـسانُ أيـضاً التَّقديـر الذي يُكنُّه له الجميع بمن فـيهم أقـرب أعزَّائه: من الضَّروري جدّاً أن يتملَّكَ المرءُ

نفسَه بذراعٍ قويَّة، وأن يُري، في جميع الحالات، وبرغمٍ من كلِّ المِحَن، تقديراً ثابتاً وواثقاً لِذاته، مقدِّماً للآخرين مثالاً يمتثلونه في تقديرهم له، محتوياً إيَّاهم بذلك داخلَ سُلطانِه. لأنَّه إن لم يبدأ تقديرُ الإنسانِ من نفسِه، فمن الصَّعب أن يبدأ مِن أيِّ مكانٍ آخر: وإذا لم يمتلك في أعماقه أساساً راسخاً، مِن الصَّعب أن يثبتَ على قدَمَيه. حقّاً، مجتمع الإنسان كمثلِ السَّائل، كلُّ جُزئيَّةٍ أو كُريَّةٍ تَضغطُ بقوَّة تلكَ اللاتي بقُربها حِفافَيها ووراءَها وأمامَها، وبقوَّةٍ أقلِّ اللاتي هنَّ بعيداتٍ عنها، وتُضغَطُ هي مثلِ ذلك مِنهُنَّ، فإذا ما في ناحيةٍ ما تخلخلَ الدَّفع والمقاومة، لن تمرَّ وهلةٌ إلاَّ وترى الكُتلة جميعها تجري مندفعةً بسرعةٍ إلى هناك. ذاكَ المكانُ الآن، مليءٌ بكُريَّاتٍ جديدة.

CII

سنوات النَّشأة الأولى هيَ، في ذاكرةِ كلِّ واحدٍ، الأوقات الأسطوريَّة في حياتِه، مثلما، في ذاكرة الأُمَم، الأوقات الأسطوريَّة هي سنواتُ نشأتها الأولى.

CIII

المـديح الذي يُعطى لنا، يجعلُ الأشياء والمَلَكات ثميـنةً في حُكمـنا بعـدما كانـت صـغيرةً ومُزدَراة. هكذا الأمـرُ، في كـلِّ مـرَّةٍ تُمـدَحُ فيـنا الأشياء والمَلَكات من جنسِ هذه.

CIV

الـثَّقافةُ الـتي يـتلقَّاها، بالأخصِّ في إيطاليا أولئك المتـثقِّفون (وهم ليسوا كُثراً للحقيقة)، هي خيانةٌ شكليَّةٌ مُـنَظَّمة مـن قِـبَل الـضَّعف ضدَّ القوَّة، والشيخوخة ضدَّ الشَّباب. يأتي الشُّيوخ ليقولوا للشبَّاب: اقتلعوا مُتَعَ الذَّات مـن نفوسِـكم، لأنَّهـا جمـيعاً خطِرة ومناقضة للفضيلة، ولأنَّـنا نحـنُ قد أخذنا منها قدْراً أكثر ممَّا استطعنا، ولو أنَّـه كـان في مُـستطاعنا الآن، لأخـذنا المزيد، ولكن ما عُـدنا نُجـدي، بـسبب الـسِّنين. لا تعبأوا بالحياة اليوم، كونـوا مُطـيعين فحَـسب، تألَّمـوا، وجاهـدوا بكـلِّ مـا تعـرفون في سـبيل الحياة المقبلة عندما ينقضي الشَّباب. الحكمـة والـصِّدق يريدان من الشَّابِّ أن يقصي نفسَه ما أمكَـنَ عـن حياة الشَّباب، باستثناء التَّفوُّق على الآخرين

في المُكابدة. وأمّا مصائرُكُم وكلُّ شيءٍ آخر هامٌّ، فدعوا التَّفكير بهِ لنا، نحن الذين لا تتمُّ الأمور إلاَّ بعونٍ منَّا. تمامُ النَّقيض لهذه الأمور فعلَه كلٌّ واحدٍ منَّا في شبابِه، ولَفَعَلَه من جديد لو عاد الشَّباب: ولكن، أنتم، عليكم بكلماتنا، لا بأفعالِنا الماضية، ولا بنيَّاتنا المستتِرة. فقط بذلك، صدِّقونا نحنُ الحكماء العارفين بأحوال الإنسان، تنالون السَّعادة. أنا لا أعرف ما هو الشَّيء الذي قد يكون أكثر خيانةً وتضليلاً، مِنَ التَّبشير بالسَّعادة تحت هكذا ظروف.

مصلحةُ السَّكينة العامَّة، العائليَّة، والشَّعبيَّة، تتضادُّ مع مُتَع ومُجازفات الشَّباب. ولذلك فحتَّى التَّربية الجيِّدة، أو ما يُسمَّى كذلك، يكمن أكثرُها في تضليل التَّلاميذ، لحملِهم على تقديم رضا الآخرين على رضاهم الذَّاتي. لنفرض أنَّنا لا نسلِّم بذلك، تبقى حقيقةٌ لا يمكن إنكارها، أنَّ الشُّيوخ ينزعون بطبيعة الحال، وبالرَّغم ممَّا قد تكون عليه دخيلة نفوسهم، إلى تخريب ومحوِ الشَّباب من حياة الإنسان بأكملِها، هذا الذي مشهدُه يشوِّشُ سكينتهم. في جميع العصور، كانت الشَّيخوخة متواطئةً على الشَّباب، لأنَّه في جميع العصور

كانت نقيصةُ الإنسان هي ذلك الجُبن في أن نُدين وندمِّر لـدى الآخرين وفيهم ما نرغب أن يكون لدينا وفينا. ولا يغـب عـن بالـك في حالٍ من الأحوال، أنَّه بين المربِّين الـذين، ولـو وُجـدَ واحـدٌ مـنهم فقط، يعملون لتثبيت الفـضيلة عند تلاميذهم، ثمَّة كُثُرٌ ممَّن يعملون على نزع أكـبر فضائل الحياة منهم، وهو الشَّباب. المُلاحَظ أكثر، أنَّـه ما مِن أبٍ ولا أمٍّ، ولا مُدرِّسٍ آخَر، يشعرون بوخز الـضَّمير مـن مـنح أولادهـم تـربيةً متمأسسةً على هكذا أسـاسٍ خبـيث. وما قد يُدهش أكثر هو نقيضُ ذلك، أنَّه لم يُعتَقَد أبداً بأنَّ إبطال الشَّباب، إذا سلَّمنا بحصول هذا علـى الأمـد الطَّويل وبالتَّعاضد مع مسبِّباتٍ أخرى، هو شيءٌ يستحقُّ الثناء.

ثمـرة هـذه الـثَّقافة الهدَّامـة، إمَّا أنَّها سوفَ تُجنى لمـنفعةِ المـثقِّف علـى حساب دمار النبتة بأكملها، وهي الحقـيقة، وإمَّـا أنَّ طلَّـاب الـثَّقافة، الـذين يعيـشون الـشَّيخوخة الوهميَّة في مرحلة الإزهار، سوف يقفزون، فـوق مـرحلة الإثمـار، إلى مرحلة الشَّيخوخة الحقيقيَّة، حيث لا ينالهم غير الحزن والسُّخرية عندما يريدون الآن أن يعيشوا معيش الشَّباب. ولكن، لا هذا ولا ذاك، فكما

يحدث دائماً، الطَّبيعة تنتصر، والشُّبَّان يعيشون معيش الشَّباب بالرَّغم من كلِّ وسائل التَّربية، متمرِّدين على النَّزعة الشَّاذَّة لمربِّيهم، هؤلاء الذين لو أنَّهم حضنوا ألمَ ومُتعةَ نِزاعاتهم الشَّبابيَّة، لكانوا استطاعوا توجيهها عبرَ الثِّقة التي كان ليمنحها لهم هؤلاء التَّلاميذ، لولا أنَّها فُقدت إلى الأبد.

CV

الدَّهاء، أعني ذاك المقرون بالخِداع، غالباً ما يُستَخدم للتَّعويض عن قُصورِ الخِداع نفسِه، وطبعاً للتفوُّق على نُسَخِه الكثيرة التي عند الآخَرين.

CVI

العالَمُ أمام الأشياء الجديرة بالحبِّ، عِوضَ أن يُحِبَّ يضحك ويذُمُّ، مثلِ ثعلبِ إيسوب[1]، تلك الأشياء التي يحسُد. عاطفةُ حُبٍّ عظيمة، مع عزاءات آلامٍ عظيمة، هي محسودةٌ كونيَّاً، ولهذا هي مذمومةٌ

(1) تؤخَذ قصة الثعلب والعنب للكاتب الإغريقي إيسوب مثالاً على من يدَّعي أنَّه لا يريد الشيء الذي لا يستطيع تحصيله، المترجم.

بكـلِّ الحـرارة. اعتـيادٌ كـريمٌ، فعـلٌ بطوليٌّ، كانا ليفطِرا القلـوب حـبَّاً: لكـنَّ الإنـسان إذا أحبَّ، وبالأخصِّ مَن يـشبهه، يـشعرُ بالمهانـة؛ ولهـذا، عِـوضَ أن يُحـبَّ يـضحكُ. بل الأمرُ يذهبُ وراء ذلك، ففي الحياة العامَّة يـبدو أنَّـه مـن الـضَّروري الكَـدُّ في إهانـةِ النَّـبالة، بدلَ الـرُّعونة: ذاكَ أنَّ الـرُّعونة مُلـك الجمـيع، لذا هي على الأقـلِّ مغفـورٌ لها؛ النَّبالةُ مضدودُ العادة، وتبدو كما لو كانت افتراضيَّة، أو كما لو أنَّها تسألُ الإطراء من نفسِها. إطـراءٌ لا يحـبُّ الـنَّاسُ، وأوَّلهـم أصحابُ المعرفة، أن يعطوه بصدقٍ ونبالة.

CVII

سذاجاتٌ كثيرة تُقال في مجلسٍ ما فقط للرَّغبة في الحـديث. بـيدَ أنَّ الـشَّابَّ الـذي يحمـل بعـض التَّقديـر لنفـسِه، عندما يبدأ بالدُّخول إلى العالم، يُخطئُ بسهولةٍ مـن مـنظورٍ آخَـر، وهو: أنَّه أثناء الحديث ينتظرُ أن يَرِدَ على أذهان الآخرين أن يقولوا عنه شيئاً غير عاديٍّ يتعلَّق بالجمـال أو الأهمـيَّة. هكذا، فيما هو ينتظر، يحدثُ ألاَّ يتكلَّم مُطلقاً. المحادثة الأكثر شِعريَّةً في العالم، والأكثر روحانـيَّةً، تـتألَّفُ هـي الأخـرى في جـزئها الأكـبر مـن

كلماتٍ وأقوال تافهة ومُقتطَعة، يُستَنجَدُ بها لأجلِ تمرير الـوقت. ومـن الـضَّروري أن يخلُص كلٌّ واحدٍ إلى قول الأشـياء الأكثـر شيوعاً، لكي لا يقول تلك الأقلَّ شيوعاً سوى بضع مرّاتٍ فحسب.

CVIII

المكابدة الكبرى للإنسان طالما هو لم ينضُج، هي لأجـلِ أن يـبدو بتمام النُّضج، وما أن ينالَ ذلك، يكابدُ لأجـل أن يـبدو غـير ناضـج. عندما بلغَ أوليفر سميث، مؤلِّف رواية «قسِّيس وِيكفيلد»، سنَّ الأربعين، أزالَ من عـنوانه نهائـيَّاً لقـبَ «دكـتور»؛ لقـد غدا منفِّراً في ذلك الـوقت هـذا الاسـتعراض الثَّقـيل، الـذي كان مُحبَّباً في السنوات الأولى.

CIX

الإنسان هو في أغلب الأحيان سيِّءٌ عندما يحتاج. لو أنَّه يتصرَّف باستقامة، يمكن أن نحكم بأنَّ السُّوءَ ليس ضـروريَّاً لـه. وقـد رأيـتُ أناسـاً مـن طبـيعةٍ جدٌّ لطيفة

وصادقة يقترفون فِعالاً في غاية الشُّنعة، لأجل أن يتجنَّبوا ضَرَّاً لا يُجتَنَب بغير ذلك.

CX

حقَّـاً، مِن المُدهِش رؤية أنَّ حوالي جميع الرِّجال مـن ذوي المنزلة الرَّفيعة، يتحلَّون بصفاتٍ بسيطة، وأنَّ حـوالي جمـيع الـصِّفات البـسيطة تُـؤخَذ كإحـالاتٍ إلى المنزلة الوضيعة.

CXI

اللـوذ بالـصَّمت أثـناء المحادثـة، هو شيءٌ جميلٌ ومُحَـبَّب عـندما تكتـشف أنَّ الشَّخص الصَّامت يملُكُ، عندما يُسأل، الجُرأةَ والأسلوبَ في الكلام.



فلسفة الألم والغضب || تعليق

لـربَّما لاحـتْ النَّغمة جافة لاذعة، غير أنَّ الأفكار تـشعُّ وتـشفُّ عـن الألم الـذي صـاحَبَ الـتَّأملَّ المريـر لليوباردي.

عينُ الرَّأسِ مِسبَرٌ ينظرُ غورَ ذاتِه–

عـينُ الـشَّاعر المفكِّـر، لعلَّهـا بلغـتْ سـرَّ الـرُّؤيا الأخير، المُحجَّبَ بلا حجاب، والمُعرَّى بلا تكشيف،

فيما وراءَ تخوم المعرفة واليأس؛

أم أنَّ العـينَ وهـمٌ لا تعـيين، والألمَ هـو العـينُ والرَّأسُ والمِسبَر؟

كلاهمـا، الـشَّكلُ والمـضمون، المبنى والمعنى، يتعالقان في رحم المُضادَّة التي بين الذَّاتيِّ والموضوعيِّ،

بـين مرارةِ العاطفة ومُصابَرة المنطق. هكذا، يضفو فضاءُ بعـضِ الأفكار بصفاءٍ قبريٍّ خَتَمَهُ القبول العميق للواقع، فـيما فـضاءاتُ الأخرى تتحشَّدُ بغيوم منقبضة مُرسَلَةٍ من الرِّئة الحيَّة للألَم الغاضب. لكن، ثَمَّ فضاءٌ واحدٌ تتوحَّدُ داخلـه كـلُّ الفـضاءات؛ فـضاءُ الـيقين بطبـيعةِ الإنسان بتثنويَّـتها، الطَّبـيعة الطَّابِعـة، والطَّبـيعة المطبوعة؛ يقينٌ أشـبه مـا يكـون بحُكمٍ نبوئيٍّ قاسٍ، لكنَّه يتطايفُ كذلك بطيفٍ من الحسد قبالةَ كلِّ من عرف سرَّ المعيش، وأتقنَ الفنَّ الجمْعيَّ للحياة.

مـع هـذا، أحـبَّ لـيوباردي، وبعُمـقٍ، الحـياةَ والإنـسان: «لطالما رفضت التَّصديق بحقيقة الأشياء التي سوف أقولها هنا في الأسفل، ذاكَ أنَّهُ... لم يكن عندي، مطلقـاً، مـيلٌ إلى كُره الإنسان، وإنَّما إلى محبَّته»، بهذه الكلمـات يصوغُ مستهلَّ واحدةٍ من أفكارِه. بيد أنَّه، مثلِ الكـثيرين الـذين أحبُّوا بأكثر ممَّا ينبغي، لم يستطعِ الفوز بِما/ مَن أحبَّ.

اعتـزالُ الحـياة، الانفـصال، الـتَّطلُّق، الانئـسار، الكَـرَبُ الكـونيُّ، الانعصافُ مِن داخلٍ، الانخطافُ إلى خـارجٍ، الكَـدَرُ المـولِّدُ الـثَّاقب الكاشِـف، هـي ثمـرة

الـضَّرورة لا ثمـرة الـرَّغبة؛ في المـشهديَّة الدَّائـرة علـى مسرحِ الوجود، لم يجد ليوباردي لنفسِهِ دوراً.

وهـذا التَّوتُّر في النَّصِّ، توتُّرٌ في كلِّ مكان، وذاك التَّـشبُّعُ الـذي يُفـصِحُ أكثـر ممَّـا يُعمِّي، ويُلغزُ أكثر ممَّا يكـشُف، وكـلُّ ذلـك الاسـتحواذُ الـذي لا يخلُصُ ولا يـستكين، هـي أشـياءٌ شَـفَّرتْ الأسلوب، وجعلته يبدو مستقيلاً عن البساطة والوحدة.

غـيرَ أنَّ الـنَّواة الأصلَ لمضمون الكثير من الأفكار هيَ ذاتُها في جميع ما كتبَ ليوباردي. السَّأمُ من التَّبسيط والـرتابة والتَّكـرار، ومـن الفـراغ المُتخَلَّلِ في الوجود، تراجُعُ الوهم وسقوط التَّخييل في رؤية الحياة والإنسان، الانتـصارُ للـسِّحر الهـشِّ والخائـبِ للـشَّباب، خـوف الـشَّيخوخة ووحـشتها، حيثُ يضافُ تدهورُ الجسد إلى جفـاف الرُّوح، البُعد التَّآكُلي للزَّمن، الإقصاءُ والرَّدُّ بين الماضـي والحاضـر، وجـبروت الذَّاكـرة؛ القوَّة الطَّاغية للشَّرِّ وللذَّاتيَّة، سيادةُ الانحلال على الاستقامة في الحياة المجتمعـيَّة، الطَّـلاق الـذي بـين النَّظـريَّة والتَّطبيق فيما يخـصُّ المبادئ الأخلاقيَّة، الحكم القاسي على الجماعة والمُجـتمَع، نقـد ثقافـةِ ذلـك الوقت، العجزُ أمام حياةٍ

مـرئيَّةٍ كمـثلِ مـسرحٍ حـيث ينتصرُ المظهرُ على الجوهر وكلٌّ يردِّد دورَه بإتقان.

تشاكُلٌ موزاييكيٌّ للرؤية والعاطفة، لا يَعدَمُ كذلك أن يتخلَّلَهُ خيطٌ من البُغض الخالص الذي يبوح بالمعاناة الشَّخصيَّة للشَّاعر. المرأة، كما يُصرُّ مؤلِّف **الأفكار**، هي الكـائن الأكثـر تمثيلاً لنقيصة الإنسان. هي المجازُ الحيُّ عن سلبيَّة هذا العالم: «في معانٍ أخرى كثيرة، المرأة هي مـثلُ صورةٍ لما هو عليه مُجمَلُ العالم: ذلك أنَّ الضَّعفَ هو سمةُ العدد الأعظم من الرِّجال، وهذا الضَّعف، أمام القلـيلين الأقـوياء الفِكْـرِ أو القلـبِ أو اليد، يجعلُ تلكَ الأكثـريَّة تـبدو مـثلما تبدو عليه الأنثى أمام الذَّكَر... مع المرأة ومع العالم، لا شيءَ أبداً يُنال، ولَهوَ تعيس الحظِّ مـن يقـعُ في حـبٍّ لا هـو زائـفٌ ولا فاتِر، وكذلك مَن يفضِّلُ أحلامَه على نفْسِه. والعالَمُ هو صورةٌ عن المرأة، يتـسلَّى بمَـن يقـع في حـبِّه برهةً، ثمَّ يمضي عابراً فوقه» (LXXV).

أمَّـا الأفكـار الـتي تـناولت موضـوعة التـربية والتَّثقـيف، فـربَّما أجملـها هي تلك التي تبدو استذكاراً لروسُّـو، ولكـن أيـضاً لآلام الطفـولة الشَّخصيَّة: «القدرُ

الأعظـم مـن الأشـخاص الـذين نكلِّفهـم مهمَّـةَ تثقـيف أولادنا، نعرفُ حقَّ المعرفة أنَّهم لم يُثقَّفوا. ومع هذا، لا نـشكُّ في أنَّهـم لـن يـستطيعوا إعطاء ما لم يُعطَوه، وما هوَ، في طبيعة الحال، شيءٌ لا يُكتَسَب» (X).

لكـنَّ التَّناقُض يبقى، وفي قلبِ كلِّ حكمٍ قد يبدو عـديم الـشَّفقة، تـومضُ بذرةٌ طيِّبة؛ لا يمكن الافتراضُ بأنَّهـا تـومضُ هكـذا مُكـرَهةً. الفرضيَّةُ الصَّحيحة هي أنَّ حساسيَّة الشَّاعر في التقاط الهشاشة والضَّعف البشريِّ قد أخـذَتْ الفيلـسوف المفكِّرَ إلى جهةِ التَّصبُّر، وتقريباً إلى جهـة الرَّأفة: «... الإنسانُ بائسٌ بالضَّرورة، وثابت العزم على الاعتقاد بأنَّه بائسٌ بالمُصادَفة» (XXXI).

الأفكـار هـي بحقٍّ مُضاهاةٌ مكثَّفة **للشذرات**، نوعٌ مـن الاسـتقطار الفائـق، وصـياغةٌ أشـدُّ تبلُّراً. الكتابان، بطبـيعة الحـال، شكلٌ متفرِّدٌ لجدارةٍ تأمُّليَّةٍ متفرِّدة. ذاكَ الذي قيلَ في **الشذرات** مُطعَّماً بالاقتطافات والأمثلة، مع نغمـةٍ يوميَّاتـيَّة وحكائيَّة، يصيرُ هنا حكمةً منحوتةً خارجَ الزَّمنِ والمُحيط.

تنـبثُّ في **الأفكـار**، أيـضاً، الـثَّقافة والاطِّـلاع

الواسعَين عند ليوباردي. فهاهُنا، يُطالعُنا الفلاسفة القدماء من أمثال سقراط وديوجينيوس، والأخلاقيُّون والكتَّاب اللاتينيُّون مثل شيشرون وأوراسيوس ومارسال. كذلك، لا يغيبُ مؤلِّفو القرن السادس عشر الإيطاليُّون عن المشهد، مثل ماكيافِللي وغويتشارديني وكاستيليونه؛ ولا مفكِّرو القرنَين السَّابع عشر والثَّامن عشر الأوربِّيُّون، كباسكال وبوفُّو وروسُّو. جميعهم قالوا كلمات ثاقبة في الفردِ وتموضعاته في المجتمع. ولا ننسى مفكِّراً استثنائيَّاً، المسيح: «يسوع المسيح كان أوَّل من أشار بإصبعه بجلاء نحوَ ذاكَ المُمَدِّحُ والمعلِّمُ لجميع القِيَم الباطلة، بأنَّه قَدَّاحٌ ومُفترٍ على جميع تلك الحقَّة، ذاكَ المُعارِض لكلِّ عظمةٍ أصليَّةٍ وجوهريَّةٍ في الإنسان... الذي سمَّاه يسوع المسيح: العالم، واسمُه موجودٌ في كلِّ اللغات، إلى هذه اللحظة» (LXXXIV). فبالنسبة إلى ليوباردي، يمثِّل المسيحُ تهشُّمَ الشِّعريَّة بين الإنسان والعالَم، التي كانت حاضرةً لدى المفكِّرين القُدماء.

لو عرَّجنا قليلاً على الأحكام النَّقديَّة حول **الأفكار**، لوجدنا معظمها ينبِّه إلى تناقض هذا العمل.

«... مثلما لا يُمكن في **الأفكار** اكتشافُ وحدةٍ فكريَّة، لن يمكنكم كذلك، وهذا على الأقلِّ ما أعتقده، رؤية وحدةٍ أسلوبيَّة. ذلك أنَّ أسلوب **الأفكار** يُحيلُنا، مِن أوَّل قراءة، إلى تضادِّ نبرتين في الكتابة، هما جليَّتا التَّعارُض، نظراً إلى تلك الازدواجيَّة في موقف ليوباردي قُبالةَ موضوعته التي لن يُشكَر عليها؛ فمن جهةٍ ثمَّة تلك النَّبرة المُفرطة والعنيفة التي ما كانت تنبغي لليوباردي سيَّما وأنَّه يتحدَّث عن شرور الإنسان... ومن الجهة الثَّانية، أنَّه في محاولته لأن يختبرَ فِعال وعواطف الإنسان كما لو أنَّها ظواهر طبيعيَّة، قد تكبَّدَ أن يعطي لكتابته طابع الدِّقَّة والموضوعيَّة اللذَين هُما لعلوم الفيزياء أصلاً...»، هكذا كتبَ ماريو فوبيني.

أمَّا أتِّيليو موميليانو، فيقول: «إنَّ **أفكار** ليوباردي لا تقول على الإطلاق شيئاً عن حياته، وهي ليست صورةً مخلصةً لما ينبغي أن تكون عليه معرفةُ شاعرٍ معتزِل. هي تبقى مجرَّد مُلحَقٍ أو خاتمةٍ لروائعه، قطرات بلسمٍ وكؤوسِ سُمٍّ عُصارةَ تجربته المُكئبة، أو محضُ تعبيرٍ عن حياةٍ شخصيَّةٍ اختارَ هو أن يزيِّفها ويفصلها عن المحيط الذي صعُبَت عليه مواجهتُه».

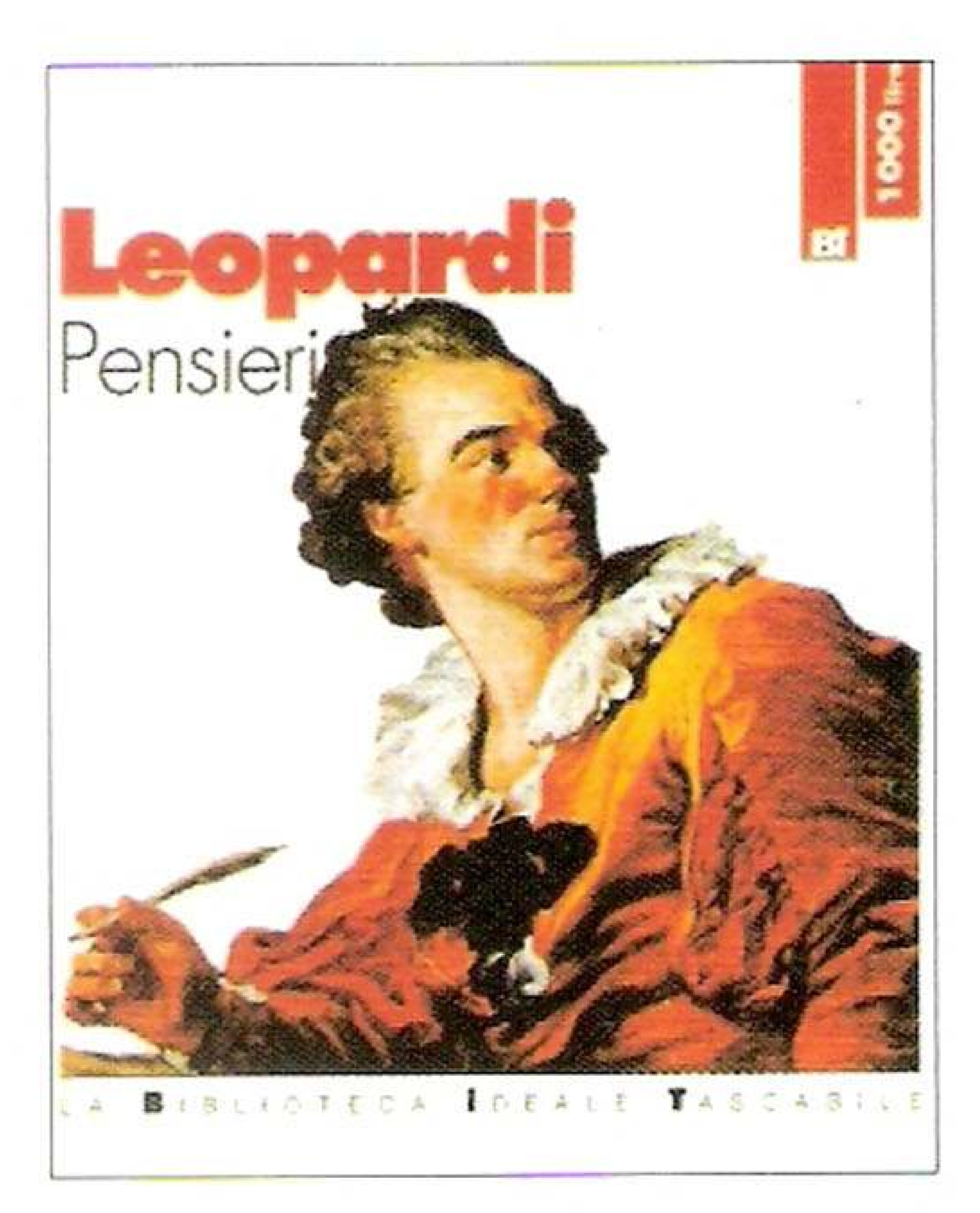
لكـن، تبقـى **الأفكـار** بكـلِّ تأكـيد، وبعـيداً عـن مقارنـتها بالـضَّرورة مـع روائعه الأخرى، نصوصاً ذات دلالة، وسواءٌ هي ألغَزَت أو بيَّنتْ، هدأت أو عصفَتْ، تـساوقتْ أو تناقـضَتْ، تبقـى رؤيـة المتـرجم جياكومو ليوباردي عن الإنسان والعالَم صافيةً ضافية.



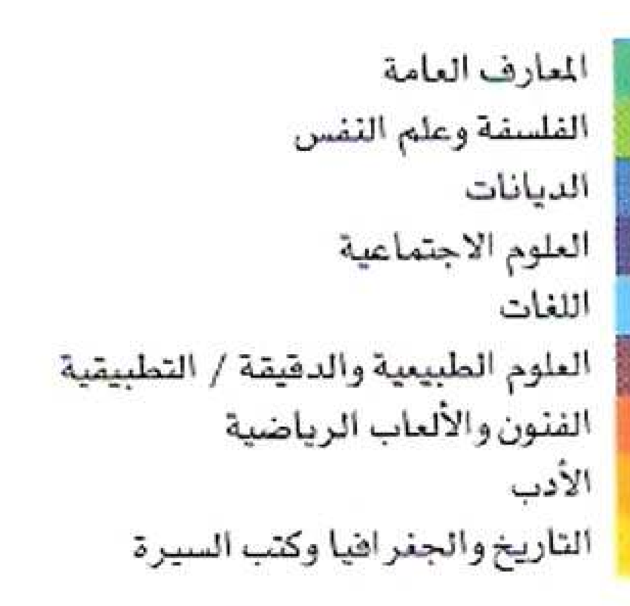
نبذة عن المترجم:



أمارجي، شاعر سوري.
ولد بمدينة اللاذقية الواقعة على المتوسّط سنة ١٩٨٠.
درس اللغة الإيطاليّة في جامعة بيرودجا في إيطاليا.
حازَ شهادتَي ماجستير من جامعتَي كاتانيا وبيرودجا في إيطاليا حول التواصل الثقافي وتدويل النظم بين دول البحر الأبيض المتوسط.
حاز الجائزة الأولى في الشعر خلال مهرجان آذار الثامن عشر للأدباء الشباب ٢٠٠١.
صدر له ديوان بعنوان «ن» عن دارَي مواقف في لبنان وبدايات في سوريا ٢٠٠٨.
صدر ديوانه الثاني بعنوان «بيرودجا: النص-الجسد» عن دار مواقف في لبنان ٢٠٠٩.
له عدّة مقالات وقصائد منشورة في الدوريات الثقافية.



الشّيخوخة سيّئةٌ إلى أقصى الحدود لأنّها تسلبُ الإنسان كلّ أشكال المتعة تاركةً له الشّهوات، ومعها جميع الآلام. رغم ذلك، يخشى النّاسُ الموتَ ويفضّلون الشيخوخة.








ISBN 978-9948-01-304-4